نماذج من الرؤى الغربية
لحالة الإسلام والمسلمين فى العالم المعاصر

تمهيد:

تتناول هذه الدراسة ــ على نحو مجمل ــ نماذج من الرؤى الغربية لوضع الإسلام والمسلمين فى المرحلة الراهنة، وذلك فى إطار جهد أوسع يهدف إلى رسم صورة إدراكية لحالة الأمة الإسلامية فى العالم المعاصر.

وهذه الصورة الإدراكية الخاصة بعالم المسلمين لا يحوزها المسلمون فحسب، بل لا يستأثرون بصياغتها وإنما يشاركهم فى حيازتها وفى صياغتها الآخرون من خارج هذه الأمة، فالآخرون يحتفظون بحقهم فى رؤية المسلمين وعالمهم على النحو الذى يلائمهم، كما يذهبون خطوة أبعد من ذلك عندما يقومون بترويج رؤاهم عن المسلمين على اعتبارها تمثل الحقيقة الموضوعية الوحيدة عن هذه الجماعة من البشر، وهذه المقدرة على صناعة الرؤى وترويجها على كل النطاقات الممكنة هى مما لم يتيسر لأبناء هذه الأمة بعد أن تجاريه أو تباريه، إما لعجز فى المقدرات والوسائل وإما انصرافاً عن الكفاح فى حقل ومجال يظن أنه فى غير حاجة لكفاح، الأمر الذى يقتضى التعرض له بالدراسة المتعمقة التى تخطو هذه الدراسة أولى خطواتها.

فقد أغرت الأمة الإسلامية ؛فى وضعيتها الراهنة، الكثيرين بتشريحها وتحليلها، يفعل ذلك من يفعله من داخلها رغبة فى إحيائها أو بعثها أو بث الفاعلية فيها من جديد، ويفعل ذلك كثيرون ممن يكتبون عنها من خارجها لاستطلاع إمكانيات هذا البعث ومدى تأثيره على الاستقرار العالمى الراهن ومدى مساسه بمصالح القوى المهيمنة فيه. فالغرب ــ على اعتبار أن ثمة منظومة واحدة تمثله أو تعبر عنه، وعلى اعتبار أنه؛ على وضعيته هذه؛ يعد أبرز المعنيين بحالة الأمة الإسلامية من خارجها ــ ما تزال ذاكرته محتفظة بحجم وأهمية الدور الذى لعبته هذه الأمة قبل أن تدخل فى ثباتها العميق، ومدى ارتباط هذا الدور بوجوده ومصالحه وأهدافه، ولذا فإنه لا يتردد؛ من خلال مدراسه المختلفة وتياراته الوافرة؛ فى دراسة كافة الاحتمالات المرتبطة بهذه الأمة، بما فيها تلك الخاصة بإمكانية تبلورها على الصعيد العالمى؛ مرة أخرى، على شكل فاعل موحد ذى تأثير وحضور.

ولا تفترض هذه الدراسة أو تدعى أن امتلاك الغرب لرؤى متعددة ووفيرة تجاه عالم المسلمين يعد أمرًا مدهشاً فى ذاته، فالغرب يمتلك رؤى متعددة تجاه كل الجماعات الثقافية والقومية المنتشرة فى العالم، كما أن الأمة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الإسلامية القائمة أو المحتملة لا تحتل أولوية اهتماماته التى يستفرغ فيها طاقاته وجهده، فاهتمام النخب الغربية على تنوعها بالإسلام والمسلمين يدخل فى إطار التكوين الطبيعي للسياق الفكري والسياسي الغربي الذى تتسع أجندته لتضم قضايا العالم بأسره، بعد أن انتقل إلى الغرب مركز التأثير الحضاري، وتشكل النظام العالمي على نحو تنفرد فيه قوى الغرب بصياغة ملامح الخريطة الدولية السياسية والفكرية أيضًا.

كما لا ترغب هذه الدراسة فى أن تصور عالم المسلمين على أنه ذلك العالم المستهدف بالمؤامرات والخطط السوداء التى يكيلها له الغرب؛ أو أن تصور الغرب على أنه ذلك المتآمر الأزلي ضد الشرق ــ على الرغم من أن تيارًا يعتد به فى الغرب نفسه قد أصبح يتبنى نظرية المؤامرة ؛التى أصبح الكثيرون فى الشرق يستعفون من مجرد ذكرها ؛ ليؤكد على خطورة الإسلام والمسلمين على الحضارة الغربية كما سيتضح فى تفاصيل هذا العمل ــ أو أن تستثير نوعًا من القلق على مستقبل المسلمين بفعل تعرضهم لنوع من المشاعر الشبيهة بمعاداة السامية التى يستشعرها أبناء العمومة من اليهود ــ على اعتبار أن الأصول الأولى للعرب المسلمين تمتد إلى سام بن نوح أيضًا لحسن الحظ. جل ما تنطلق منه هذه الدراسة، وما تفترض أنه يبرر تخصيص جهد بحثي مستقل للقيام بها؛ هو الزعم بأن اكتمال ملامح الصورة الإدراكية عن الأمة الإسلامية لا يتأتى إلا من خلال التعرض للرؤى الغربية عن عالم الإسلام والمسلمين، وهذا التركيز على الرؤى الغربية عن الإسلام والمسلمين لا ينبع من وفرة هذه الرؤى المبالغ فيها فحسب كما لا ينبع من اطراد التقاليد البحثية على استلهام النماذج الفكرية والنظريات الاجتماعية من النموذج المعرفي الغربي قبل الشروع فى أى عمل يفترض فيه الاستقلال، ولكن لأن العديد من ملامح هذه الرؤى الغربية ومفرداتها التى تروجها عن العالم الإسلامي قد تسربت إلى نفوس وضمائر الكثيرين من أبناء هذه الأمة أنفسهم لتشكل بعد ذلك قناعاتهم وتصوراتهم الخاصة عن أمتهم وعن أنفسهم. هذه التسرب الثقافي لمسلمات الرؤى الغربية إلى الذات الإسلامية؛ سواء كان بفعل التبنى أو الترديد، وسواء كان بفعل الاقتناع أو الاستهلاك الثقافى؛ قد أصبح يمثل حقيقة واقعة لا جدال فيها، فالكثيرون من أبناء الشرق المسلم قد صاروا يتحدثون عن ذواتهم من خلال قناعات ومفردات وبلاغيات الآخرين، ولذا فإنه ليس من باب التحريض القول بأن الغرب قد تدخل فى صياغة ما يعتبره الكثيرون من المثقفين والأكاديميين أفكارهم الذاتية وقناعاتهم الخاصة عن الأمة الإسلامية وما يتصل بها من قضايا أو موضوعات.

العلاقة بين كثير من الرؤى الغربية والرؤى "الذاتية" عن حالة ووضع الإسلام والمسلمين فى العالم المعاصر أصبحت أشبه ما يكون بالعلاقة بين الصوت والصدى، ولهذا سيجد القارئ لهذه الدراسة والمخصصة بالأساس لعرض وجهات نظر غربية بشأن الإسلام

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمسلمين، سيجد أن كثيرًا مما يقرأه هو مما ألف سماعه من نخب عربية وإسلامية، فالموضوعات واحدة والاستخلاصات واحدة والرؤى متطابقة. وربما يكون لهذا علاقة بما أصبح يتردد مؤخرًا؛ وبشكل لا يخلوا من إلحاح؛ من أن الغرب بمؤسساته وجامعاته ومراكزه البحثية قد صار يعرف عن المسلمين وأوضاعهم أكثر مما يعرفه هؤلاء عن أنفسهم، وربما أيضًا يكون له علاقة أكثر عمومية بالسطوة التى يمارسها النموذج المعرفى الغربي، والذى أفرز ــ من بين ما أفرزه ــ سياقًا فكريًا جمعيًا له مفردات أصبحت نمطية وقناعات أصبحت مقبولة فى شتى بقاع العالم الثقافية والمعرفية. فهو سياق يستوعب بداخله الكافة ويتغلغل عبر خصوصيات الجميع فيقدم للأفراد تصورًا عن أنفسهم من خارجهم ووفقًا لمعطيات غريبة عنهم، ومع ذلك يتم تقبلها واستمراءها والعمل بمقتضاها بل وترويجها أيضًا.

هذه المفارقة هى التى تقتضى القيام بهذه الدراسة، وهى التى تبرر استطلاع وجهات نظر الآخرين على قدر من التدقيق، طالما أن وجهات النظر هذه يتم تبنيها داخليًا واستهلاكها على أنها بضاعة محلية الصنع. ولذا ستقف الدراسة عند حد الرصد ولن تتعداه إلى التحليل، فيكفى أن تكون أولى خطوات تعاملنا مع الآخر هى معرفة ما يقوله عنا وكيف يرانا وما هى مسوغاته فيما يتوصل إليه بخصوصنا.

وسوف تتوقف هذه الدراسة عند ثلاث محطات أساسية تستطلع من خلالها ملامح هذه الرؤية وخصائصها، المحطة الأولى هى الاستشراق على اعتبار أنه أول من أرسى أسس التعامل الفكري مع العالم الإسلامي، بعد ذلك تتناول نماذج من تيارات الفكر الغربي المعاصر، والذى يمثله الأكاديميون والباحثون والمحللون السياسيون، وأخيرًا نتعرض لنموذجين من نماذج الخطاب الغربي الرسمي، الأول من القارة الأمريكية، ويعبر عنه الرئيس الأمريكي بيل كلينتون كممثل أول للإدارة الأمريكية، والثانى من القارة الأوربية ويمثله ولى العهد البريطاني الأمير تشارلز، كممثل للتاج البريطانى.

البداية من الاستشراق

يمثل الاستشراق نقطة البداية المناسبة للوقوف على ملامح التصور الغربى للأمة الإسلامية. ذلك أن الخطاب الغربى المعاصر المعنى بدراسة قضايا العالم الإسلامى يحمل فى طياته العديد من مظاهر استمرارية التوجه الذى بدأته الكتابات الاستشراقية وتتمثل هذه الاستمرارية فى أكثر من مستوى: منها استمرارية المنهج واستمرارية الموضوع فضلًا عن استمرارية الأشخاص أنفسهم. وإذا بدأنا بالنقطة الأخيرة تحديدًا نشير إلى حقيقة أن عددًا من أشهر الأسماء التى تهتم بمعالجة الشأن الإسلامى المعاصر هى لأعلام مخضرمى مدرسة الاستشراق، فبعد أن كان هؤلاء مقتصرين على دراسة الظاهرة الدينية والثقافية وما يرتبط بها من مذاهب وتجمعات؛

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

اتسع نطاق تحليلاتهم ليتطرق إلى الجوانب السياسية والاجتماعية لعالم المسلمين المعاصر وذلك انطلاقًا من قناعة –مقبولة على نطاق واسع فى الغرب– مفادها أن أبرز من يمكنه أن يدعى فهم الظواهر المختلفة التى يعج بها عالم المسلمين من النخبة الفكرية الغربية إنما هم المستشرقون. وترجع هذه القناعة فى قدر كبير منها إلى خبرة هؤلاء العلمية بتاريخ المسلمين وحضارتهم فضلًا عن إتقان الكثيرين منهم للغة العربية الأمر الذى يؤهلهم أكثر من غيرهم للتصدى لتقديم تفسيرات وتحليلات مقبولة للقضايا والموضوعات التى تجرى فى المجتمعات والدول الإسلامية. أبرز الأسماء التى ترد فى هذا السياق هي: برنارد لويس، منتجمرى وات، فون كريمر، جاك بيرك.

وتمتزج فى أعمال الأسماء السابقة الخلفية الاستشرقية التقليدية مع الطابع التحليلى الذى يميز الأعمال المعاصرة للمهتمين بالشأن الإسلامى، يبدو هذا بشكل شديد الوضوح فى كتابات برنارد لويس الذى لا تغيب عن قريحته صورة الحضارة والتاريخ الإسلاميين وهو يكتب عن القضايا المعاصرة التى قد تبدو لكثيرين غيره منبتة الصلة عن أى بعد أو أبعاد تاريخية؛ ففى مقال له بعنوان " إعادة التفكير فى الشرق الأوسط "[١] وفى معرض حديثه عن تغير ملامح الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط بعد تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال جمهورياته الإسلامية، يرى لويس أن من أبرز المؤشرات التى تجعله يعتقد أن انضمام هذه الدول (الإسلامية) إلى الحظيرة الشرق أوسطية سوف يعيد الأهمية التاريخية للمنطقة ككل -إن هذه الدول كانت تمثل دومًا ركائز حضارية هامة على مدار التاريخ الإسلامى، ويكفى للتدليل على ذلك ــ والكلام مازال للويس ــ أن عددًا من أبرز الأسماء الإسلامية مثل البيرونى ، الخوارزمى ، الفارابى ، ابن سينا ، والبخارى هؤلاء جميعًا قد أنجبتهم هذه البلدان لكى يعم تأثيرهم بعد ذلك العالم الإسلامى بأسره{[٢]. وهكذا فإن لويس يربط بين المظاهر الحضارية الإسلامية القديمة وبين تحليلاته المعاصرة للقضايا المختلفة التى يمثل المسلمون طرفًا فيها مثل الشرق أوسطية إلى الحد الذى جعله يجزم بأن استقلال بلدان آسيا الوسطى –ذات الخصائص الحضارية سالفة الذكر– سوف يمثل أحد أهم محاور التغير فى الشرق الأوسط الجديد. وفى كتابه "اللغة السياسية فى الإسلام"[٣]، يطبق لويس منهجه التقليدى القائم على دراسة اللغة والثقافة للتوصل بعد ذلك إلى دراسة الأفكار السياسية والاجتماعية، حيث يقدم لويس فى هذا الكتاب مسحًا شاملًا للمصطلحات السياسية فى اللغات العربية والتركية والفارسية على مدار قرون عديدة انطلاقاً من فرضية معينة مفادها أن الأصول الدينية للكلمات السياسية فى البلدان الإسلامية؛ أو "أرض الإسلام" على حد وصف لويس نفسه؛ تحدد الفكر السياسى السائد فى هذه البلاد فى يومنا هذا إلى حد بعيد، ويبدو لويس بهذه النبرة من المؤكدين على فكرة الأمة؛ الأمر الذى يجعله فى وضع خلافى مع العديد من المهتمين بشئون العالم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الإسلامى ممن ينطلقون من فرضية مضادة مفادها أن مفهوم الأمة الإسلامية قد أصبح أثرًا بعد عين منذ أن أجهز كمال أتاتورك على مؤسسة الخلافة فى العشرينات من هذا القرن. وبفعل هذه القناعة ــ أيًا كان مصدرها ــ لدى لويس فإنه ينحو فى كثير من تحليلاته إلى تجاوز المفهوم التقليدى لنمط الدولة القومية الذى تأخذ به كل الدول الإسلامية المعاصرة لصالح التعامل مع جسد إسلامى متكامل يصوره فى كلماته دائمًا باسم "أرض الإسلام"، كما يؤكد على استمرارية الحضور الدينى فى حياة الشعوب الإسلامية المعاصرة على مستويات عدة ليس أدناها المستوى المفاهيمى واللغوى المجردين.

وكما أن استمرارية الأشخاص قد أثرت تأثيرًا كبيرًا على حالة الخطاب الغربى المعاصر عن الإسلام كذلك أثر استمرار كل من المنهج والموضوعات الاستشراقيين على طبيعة المنتج الخطابى الغربى وعلى مضمونه بشكل كبير، وتبدو استمرارية المنهج فى العديد من المحاور التى يقتضى استقصاؤها العودة إلى الوراء قليلًا لمطالعة أهم الملامح المنهاجية التى اشتملت عليها الكتابات الاستشراقية التقليدية. من أبرز هذه المحاور غلبة النهج التفكيكى والتركيز على دراسة مظاهر الانقسام بين المسلمين والتى تعرض على أنها تمثل الوضع الطبيعى فى العالم الإسلامى. فقد ركز عدد كبير من المستشرقين على ظاهرة نشوء الفرق الإسلامية تركيزًا واضحًا، وتم التوسع فى متابعة فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة والحركات الصوفية وذهبوا فى أصل نشوئها وتطورها وتعاليمها مذاهب شتى[٤]، ولم يكتف المستشرقون بالتنقيب على السطح وإنما تعمقوا فى البحث عن الحركات السلبية فى التاريخ الإسلامى مثل حركة الزنج والخرمية والبابكية والحشاشين والقرامطة والزنادقة والشعوبية، وهى الحركات التى ربما لا يعرفها أو يسمع عنها عدد كبير من المسلمين أنفسهم. وفى كثير من الأحيان كانت الكتابات الاستشراقية تنزع نحو المبالغة فى تبرئة ساحة هذه الجماعات مما ينسب إليها وتلقى بالتبعة كاملة على طبيعة المجتمع الإسلامى الذى سلب قطاعات واسعة من الناس الكثير من حقوقهم ودفعهم إلى طريق التمرد والثورة. فقد صورت هذه الكتابات حركة الزنج على أنها " ثورة العبيد " المظلومين الذين يعانون من التمييز الاجتماعى والاقتصادى، كما صورت البابكية باعتبارها " انتفاضة الآذريين ضد التعسف والتسلط العربى" ، أما القرامطة فقد صوروا على أنهم "مناضلون ضد مفاهيم المجتمع العربى التسلطى المتخلف من أجل العدالة والمساواة ومبشرون بالخلاص من الاستغلال والفساد"، أكثر من ذلك فقد عمد بعض المستشرقين إلى إظهار حركات الزندقة التى ظهرت فى العصر العباسى على أنها نمط من التفكير الحر الذى دعا إليه مفكرون مستقلون وفلاسفة ذوو نزعة متشككة[٥]. هذه النزعة التفكيكية التقليدية فى الكتابات الاستشراقية الكلاسيكية نجد ما يضاهيها بوضوح فى الأعمال الفكرية والأكاديمية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الغربية المعاصرة والمختصة بشئون العالم الإسلامى، فالعديد من هذه الأعمال تركز على دراسة الجماعات الإسلامية الموازية للفرق القديمة ــ بعد أن فقدت هذه حضورها المؤثر ــ وعليه يغلب تركيز الكثير من هذه الأعمال على الجماعات الفرعية مثل "الجهاد" و"التكفير والهجرة" و"الناجون من النار" وفى بعض الأحيان يتوجه التركيز إلى الفرق المستحدثة كالبهائية والقاديانية فضلًا عن الجماعات المختلفة المنتشرة فى الهند وأفريقيا ، وعلى الرغم من محدودية تأثير هذه الجماعات والفرق على الواقع والخريطة الإسلامية ككل فإنها تحظى فى ضوء غلبة المنهج التفكيكى آنف الذكر ببالغ اعتناء الكثير من الأقلام المعاصرة المتخصصة فى شئون العالم الإسلامى.

المحور الثانى من محاور الاستمرارية فى المنهج يتبدى فى التركيز على فكرة عزلة أهل الذمة، وهو النهج الذى بدأه عدد من المستشرقين اليهود فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وانصب معظمه على مسألة الجزية "والأعباء المالية الضخمة التى كان أهل الكتاب يرزحون تحتها فى ظل الحكم الإسلامى على اختلاف فتراته"،حيث حاول هؤلاء المستشرقون التأكيد على "العزلة الاجتماعية لأهل الذمة" محاولين تصوير المجتمع الإسلامى على أنه مجتمع مغلق لا يمكن الدخول إليه إلا بشروط وأن الجماعات غير المسلمة فى دار الإسلام كانت جماعات معزولة[٦]. هذه النبرة نجد ما يضاهيها فى الخطاب الغربى المعاصر خاصة بعد أن تواتر الحديث عن مسألة الأغيار الدينيين وحقوقهم الاجتماعية والسياسية، ثم تطور الأمر ليصل إلى حد الحديث عن وجود اضطهاد دينى يعاني منه الأقباط فى عدد من الدول الإسلامية وعن ضرورة سن التشريعات الملائمة التى تحول دون تعرضهم لهذا الاضطهاد ومعاقبة الدول والحكومات التى يجرى هذا الاضطهاد تحت سمعها وبصرها.

محور آخر قريب من المحور السابق يصبغ كل من الكتابات الاستشراقية التقليدية والكتابات المعاصرة المتخصصة فى الشأن الإسلامى ألا وهو **إبراز دور الأقليات غير العربية والاحتفاء بهمومها ومشاكلها**. أثار المستشرقون التقليديون مشكلة الأقليات من غير العرب تحت اسم "**مشكلة الموالى**"، حيث أشاعوا فى هذا السياق فرضية معينة مفادها أن الدولة الإسلامية ــ وبخاصة فى العهد الأموي ــ قد تبنت سياسة التمايز الاجتماعى والاقتصادى والسياسى تجاه الموالى بحيث استغلتهم واضطهدتهم ، كما وأن المجتمع نظر إلى الموالى نظرة احتقار وازدراء، وأن هذا التمييز الذى قاسى منه الموالى كان سببًا فى انضمامهم إلى الحركات المناهضة للدولة[٧]، نفس هذه النبرة نسمعها الآن تتكرر كثيرًا فى ثنايا الخطاب الغربى معربة عن قلقها من المعاملة التمييزه التى تعانى منها الأقليات المنتشرة فى أرجاء العالم الإسلامى خاصة فى ظل وجود أزمة مشاركة متأصلة فى هيكل وبنيان الدول الإسلامية على اختلاف أنماطها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفى هذا السياق تبرز العديد من التدخلات التى تمارسها الدول الغربية فى الشئون الداخلية للبلدان الإسلامية بحجة أن هذه التدخلات ضرورية لمد يد العون والحماية للأقليات المهضومة فى داخل هذه البلدان ، وعندما يتقاطع هذا المحور وسابقه ؛ أى عندما تكون "الأقلية غير العربية" من "الأغيار الدينيين" قد يأتى التدخل بشكل سافر لا حياء فيه.

وفضلًا عن المحاور السابقة فإن هناك عدد من الملامح الأقل وضوحًا والتى تعكس بدورها عنصر الاستمرارية فى المنهج الاستشراقى منها على سبيل المثال تغليب العنصر المادى فى التفسير[٨] ، ظهر هذا فى الكتابات الاستشراقية الكلاسيكية عند التأكيد على أثر الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى ظهور الإسلام كدعوة دينية ثم فى الحديث عن النزعات المادية لدى المقاتلين المسلمين وسعيهم وراء الغنائم، فى محاولة مستميتة من هذه الكتابات لتفسير الانتشار الخاطف للإسلام فى البلدان المجاورة، كما ظهر نفس هذا المحور فى الكتابات الحديثة والتى لم تجد ما يبرر الصحوة الدينية التى بدأت منذ السبيعنات فى الكثير من البلدان الإسلامية إلا فى الظروف الاقتصادية الصعبة التى عانت منها معظم شعوب الدول الإسلامية بعد أن فشلت حكومات التحرر الوطنى فى تطبيق برامج الحداثة.

وإذا كانت المحاور السابقة هى أبرز محاور الاستمرارية فى المنهج الاستشراقى عمومًا فإنه يمكن الحديث كذلك عن عدد من المناحى التطورية التى شهدها الأسلوب والمنهج الاستشراقيين. فالمعالجة الاستشراقية للشرق المسلم كما احتفظت بعدد من ركائز التحليل والتفسير فهى قد شهدت أيضًا عدد من ملامح التطور من أبرزها ذلك التطور الذى شهده التخصص الاستشراقى بأكمله من الاقتصار على ممارسة الاسقاطات الفجة على الإسلام والمسلمين؛ والتى لم تكن تعدو إلصاق التهم والرذائل والنقائص بهما؛ إلى المعالجة العلمية الرصينة القائمة على استخدام المنهج العلمى فى تحليل وقائع التاريخ العربى الإسلامى. فقد حفل الإنتاج الاستشراقى المبكر بالعديد من التصورات المغلوطة بشأن المسلمين والتى تصورهم على أنهم حفنة من البرابرة أو المتطفلين على الحضارة الهللينية الإغريقية. كما لم يكن يتم الإشارة إلى المنتمين إلى الإسلام باسمهم الطبيعى "أى المسلمين" وإنما كان يستخدم وصف المحمديين للإشارة إليهم، كما شاعت بالتوازى عدد من المسميات الأخرى التى تحمل فى طياتها طابعًا ساخرًا مثل "السراسنة" Saracans وهى كلمة غير ذات أصل واضح ، وإن كان البعض يرى أنها تشير إلى تحريف يونانى للكلمة العربية "شرقى"، ومن الممكن أيضًا أن تكون مشتقة من كلمة شركسى[٩]،وحتى وقت قريب ــ وربما حتى يومنا هذا ــ كان يتم استخدام كلمتى مسلم وتركى فى معظم أجزاء أوربا كمترادفين. والجدير بالذكر هنا أن كلمة "تركى" تستخدم فى كثير من الدول الأوربية بمعنى "غبى" كما تستخدم للإشارة إلى أنماط

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السلوك غير اللائقة[١٠]، كما اشتهر لفظ "مسليمان" للإشارة إلى المسلمين؛ وهى بدورها كانت صفة سلبية حيث تستخدم لوصف الضعفاء وغير القادرين. ومن السخافات التى شاعت بكثرة فى الكتابات الغربية القديمة المتعلقة بالإسلام تلك المتعلقة بالصنم الذهبى "ماهومد"؛ الذى ذكر عدد من المؤلفين الغربيين أنه معبود المسلمين المقدس ، فالمسلمون وفقًا لهذا التصور كانوا مجرد حفنة من عبدة الأصنام الذين يحترفون تحضير أرواح الموتى وصناعة التعاويذ والقيام بأعمال السحر الأسود، تحرسهم فيالق من زبانية الشياطين، ويسجدون للصنم الذهبى ماهومد الذى تستقر تحت قدميه القرابين البشرية التى يذبحها له أتباعه تقربًا وتزلفًا[١١]. وهكذا كان الشرق دائمًا ما يبدوا غامضًا وسحريًا بل وشيطانيًا بالنسبة للغرب وذلك على الرغم من المواجهات والتفاعلات العديدة التى جرت بين شعوب العالم الإسلامى ومواطنى أوربا. ويبدو أن الغربيين كان يريحهم الاحتفاظ بهذه الصورة بخصوص أعدائهم فلم يحاولوا تغيرها على الرغم من الفرص العديدة التى سنحت لهم للقيام بذلك. ويرصد السفير الألمانى المسلم؛ مراد هوفمان؛ هذه الظاهرة فى كتابه "الإسلام كبديل" فى فصل بعنوان "الشرق المحتجب" فى إشارة إلى طبيعة الصورة التى كان الشرق يبدو عليها بالنسبة للغربيين، فهو شرق مبهم غامض يلائم أن تصاغ حوله الأساطير والحكايات. وعلى الرغم من استمرار عدد من هذه المغالطات فى أذهان الكثيرين حتى يومنا هذا؛ وأبرزها استخدام وصف المحمديين للإشارة إلى المسلمين ــ كما لو أن الإسلام أحد الديانات الأرضية التى يتوجه فيها ولاء أتباعها إلى فرد بشرى وليس إلى الإله الواحد الأحد ــ نقول على الرغم من ذلك فقد تطورت الكتابات الغربية المتعلقة بالإسلام بشكل واضح حيث أصبح المضمون النظرى لهذا الكتابات مبنى فى قدر كبير منه على ذكر الوقائع الحقيقية التى تخص الإسلام أو المسلمين، كما أصبحت هناك طائفة كبيرة من التحليلات القيمة التى تخص الشأن الإسلامى والتى تتحلى بقدر كبير من الموضوعية والتجرد. وقد قدمت حركة الاستشراق فى بدايتها جهدًا مشكورًا فى تحقيق عدد كبير من كتب التراث الإسلامى، حتى إن الفضل يعود بحق إلى عدد من المستشرقين فى إزالة الغبار عن عدد كبير من المصنفات التى أنتجتها الحضارة الإسلامية وتقديمها للباحثين محققة ومضبوطة. وذلك بعد جهود موسعة فى تتبع المخطوطات الموجودة فى المكتبات الشرقية الكبرى فى العالم الإسلامى وفى أوربا وآسيا الوسطى وأمريكا الشمالية[١٢]، ويمكن فى هذا الصدد ذكر قائمة طويلة من الأسماء التى أسهمت فى إجلاء هذه الصورة السحرية التى راجت فى الغرب عن عالم المسلمين، وتقديمه فى إطاره الطبيعى بدون إفراط فى المغالاة أو الإسقاط الذاتى، منها على سبيل المثال لا الحصر: أن مارى شمل، زيجريد هونكه، جاك بيرك، كارل بروكمان، ألفريد فون كريمر، أوجست ميللر، هنرى لاوست، فريدريش

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ريكرت، ووليم منتجمرى وات... إلخ. لقد أتاحت تلك البحوث للغرب التعرف على صورة أوضح للشرق والإسلام، كما أطلعت العالم الإسلامى نفسه على حقائق علمية مهمة لم تكن من قبل معروفة لأبناء الشرق ذاتهم(١٣).

وترجع هذه الطفرة البحثية التى صبغت المنهج الاستشراقى إلى عدة عوامل يأتى على رأسها طبيعة المناخ العلمى الذى ساد فى أوربا فى فترة نهضتها والذى أثمر ضمن ما أثمر ذلك الإقبال الجاد على دراسة ثقافات وحضارات العالم المحيط بها، وسواء أكان ذلك بدافع من المركزية الأوربية كما يرى إدوارد سعيد(١٤) أو بدافع من الرغبة فى الانفتاح على الآخر فإن النتيجة النهائية كانت فى صالح المشروع النهضوى الأوربى وفى قدر منها كانت أيضًا فى صالح الشعوب والثقافات التى خضعت للدراسة. العامل الثانى الذى أثمر فى ازدهار المشروع الاستشراقى وتخليه عن الأوهام الموروثة هو ارتباطه بالمشروع الاستعمارى الذى شنته أوربا على معظم أجزاء الشرق القديم، بحيث مثل الأول بالنسبة للثانى دليل فهم وإخضاع الشعوب المقهورة، فقد كانت للإداريين الاستعماريين بطبيعة الحال مصلحة فى معرفة البناء الاجتماعى والسياسى للمجتمعات المسلمة وذلك لتأكيد الهيمنة على ذلك القطر الواقع خارج العالم الغربى وإحكام السيطرة عليه، فضلًا عن المنطلقات الاقتصادية التى صبغت؛ ومازالت تصبغ؛ التوجهات الغربية تجاه الشرق فى معظم مراحل تاريخه، فلم يكن الغرب مهتمًا فقط بمعرفة الجوانب الغريبة والأسطورية فى الشرق المسلم وإنما أيضًا كان مهتمًا بالحصول على منافع وفرص اقتصادية جديدة فى أرضه(١٥).

وقد أدى ذلك الارتباط بين المشروعين ؛الاستشراقى والاستعماري؛ إلى تعامل الكثير من أبناء الشرق المسلم مع النتاج الثقافى للاستشراق بمزيد توجس وقلق وذلك بالنظر إلى السياق الذى أنتج فيه والظروف التى أملته. وقد حاول فريد هاليداى أن يدحض هذه الفكرة أو الخرافة على حد تعبيره مبينًا أن ليس ثمة علاقة حتمية بين منشأ الأفكار وصحتها فكون الأفكار قد أنتجت فى سياق من السيطرة لا يعنى بالضرورة أنها غير صحيحة أو أنها مشوشة. وتتبنى حجة هاليداى على أنه حتى لو سلمنا لفكرة العلاقة بين السياق والصحة فإن التفكير الأولى يدفعنا إلى الاقتناع بأن مجرد محاولة إخضاع بلد ما تتضمن بدرجة ما إنتاج صورة دقيقة عنه:

فإذا أردت أن تسيطر على بلد ما فإنك تحتاج إلى معرفة أين توجد مناجمه وواحاته، وأن تكون لديك خريطة جيدة، وأن تدرك تكوينه العرقى واللغوى وما إلى ذلك. لقد كان الخبراء الذين جاءوا مع نابليون إلى مصر فى عام ١٧٩٨ جزءًا من مشروع إمبريالي، لكن ما أنتجوه من معرفة ــ أيًا ما كانت دوافعها وتمويلها واستخدامها ــ كانت له قيمة موضوعية . ويمكن أن يقال الشىء نفسه عن كثير من الكتابات اللاحقة. وبعبارة أكثر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

خشونة: إذا كنت تعتزم سرقة بنك، فإن من الأصوب أن تكون لديك صورة شديدة الدقة لتخطيطه، وأن تعرف روتين موظفيه وأساليبهم الإدارية، ومن الأفضل أن تكون لديك صورة عمن يمكن أن يتم إغراؤه من داخل المنظمة(١٦) .

وعليه فإن هاليداى يرى أن صحة الكتابات الاستشراقية ينبغى أن تعامل كأمر مفروغ منه أيًا كان تقييمنا للمصدر الذى تفرعت عنه. هذا التحليل على الرغم من وجاهته إلا أنه يسطح الأمور أكثر من اللازم، فالحق الذى ينبغى الإشارة إليه أن عددًا قليلًا فحسب من المستشرقين الأوربيين كان قادرًا على التعامل بمنهجية منطقية مدركة لخفايا الموضوع محل المعالجة، أو دراسته دراسة متعمقة أصيلة مستوفاة ــ وهذا يمثل استدراكًا على الاستدراك الخاص بالتطور فى الأسلوب الاستشراقى ــ فالخلفية القيمية والعلمية لكثير من المستشرقين قد تحكمت فى إنتاجهم وصبغت آرائهم وأفكارهم، فقد نظر بعضهم إلى الإسلام بعوينات القساوسة مثلما فعل سير هملتون جب، وتناوله بعضهم بمبضع علماء الاجتماع الماركسيين مثل مكسيم رودنسون، وعالجه بعضهم الآخر معالجة عالم الإثنولوجيا المتخصص فى الأعراق البشرية والذى يعجّل بتحليل ودراسة شعب بدائى قبلى، هم المسلمون فى نظره، وذلك قبل انقراض "ذلك" الشعب البدائى، مثل سواه من الشعوب البدائية المنقرضة١٧. وفضلًا عن المشاكل المرتبطة بالتحيز المنهاجى والذى ميز العديد من الأعمال الاستشراقية فإن هناك عدد من المشاكل الأخرى التى أشار إليها عدد من المستشرقين المعاصرين أنفسهم والتى أدت ضمن ما أدت إليه إلى عدم خلو الأعمال الاستشراقية من المثالب ومن ثم من الانتقادات، فالباحثون الغربيون بأنفسهم يعترفون بأن تفسير النص القرآني والأحاديث النبوية يمثل تحديًا كبيرًا لهم وذلك لأنهم لا يمتلكون حقلًا علميًا مماثلًا فى تراثهم الثقافى، إذ ان عليهم أن يفهموا معانى تعبيرات معينة كما أن عليهم أن يفهموا النصوص ذات العلاقة فى ضوء ما تصرح به من معنى ــ يرتبط فى معظم الأحيان بالأرضية الثقافية والتقاليد الدينية ــ وليس استنادًا إلى منظور خارجى، وعليه فإن المشكلة المميزة للتناول الاستشراقى للموضوعات الإسلامية ترتبط بعنصر التفسير أى الفهم الصحيح للنصوص المدروسة سواء فى نفسها أو فى ضوء مجموعة من التساؤلات المرتبطة بها. وفضلًا عن هذا وذاك فإن ما تتسم به المنهاجية العلمية السائدة فى العلوم الاجتماعية من نزعة تقليصية Reductionalist قد لا تتلاءم فى كثير من جوانبها مع دراسة الإسلام الذى هو بالأساس وفى نظر معظم معتنقيه دين كلى، فالإسلام كما سبق القول ليس مجرد دين كما تفهم هذه الكلمة فى الغرب وإنما هو "حضارة وبناء اجتماعى وطريقة معينة للحياة وتقليد ثقافى بالمعنى الواسع للكلمة"(١٨).

ويقودنا الحديث الآن إلى ذكر أهم نقاط الاختلاف بين المنهج الاستشراقى التقليدى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقطاع واسع من بين المهتمين المعاصرين بتناول الإسلام والمسلمين، ويأتى على رأس نقاط الاختلاف تلك المتعلقة بتقلص استخدام مصطلح الشرق نفسه!. فقد استقر التعريف التقليدى للاستشراق على أنه "ذلك الاتجاه الدراسى المعنى بدراسة الحضارات والثقافات واللغات والمجتمعات الشرقية فى ماضيها وحاضرها"[١٩] إلا أن الملاحظ فى ثنايا الموجة الحالية من الكتابات المعاصرة سواء للتيار الاستشراقى الجديد أو للمراقبين والمحللين السياسيين من خارج المؤسسة الاستشراقية أن مصطلح الشرق نفسه قد تراجع لصالح مصطلحات وتقسيمات جديدة تقوم على أساس الاعتبارات الاقتصادية والتقسيمات الجغرافية وليس على أساس التقسيمات الدينية أو الحضارية أو الثقافية، وعليه أصبح لدينا تقسيم جديد للرقعة الإسلامية الواحدة، يجزئها إلى مجموعة دول الشرق أوسط ومجموعة دول جنوب شرق آسيا ودول وسط آسيا فضلًا عن الدول الأفريقية جنوب الصحراء. هذا الاختزال الاصطلاحي يعنى ضمن ما يعنى أمرين أولهما أن المنهج الجديد قد انتهى إلى ضرورة تجزئة المكون الإسلامى الكلى والذى كان يمتد على مساحات جغرافية شاسعة وفقًا لمعيار ثقافى بالأساس إلى عدد من النطاقات الإقليمية المتمايزة اقتصاديًا. وثانيهما أن التيار الجديد يذهب إلى أن الإسلام لم يعد عنصرًا تفسيرًا يمكن الاعتداد به فى دراسة حياة الشعوب الإسلامية؛ وهو الأمر الذى كان يسوغ جمع الدول الإسلامية كلها فى سلة واحدة عند المستشرقين التقليديين؛ فـ"الإسلام الذى صنع أمة واحدة من دون الناس" لا يعدو أن يكون ــ من وجهة نظر هذا التيار المعاصر ــ مجرد ظاهرة تاريخية حدثت فى مرحلة زمنية معينة ثم أصابها الترهل بفعل التراكم الزمنى والامتداد الجغرافى بحيث لم يعد ثمة إسلام واحد يمكن الاحتكام إليه لتفسير أفعال المسلمين وذلك إذا ما افترضنا أن أفعال المسلمين يمكن تفسيرها دينيًا أصلًا. الاتجاه الجديد يرفض فكرة التقسيمات الحضارية ويرفض الاعتراف بأن العنصر الحضارى أو الثقافى يمكن أن يدعم فهمنا لمجتمعات وشعوب العالم الإسلامى، التى لا تمتلك شيئًا مميزًا عن غيرها يجعلنا نفردها بمنهاجية خاصة أو افتراضات مستقلة عن النظريات الاجتماعية العامة[٢٠].

هذا الاختزال الاصطلاحى والمنبثق عن رؤية جديدة للإسلام والمسلمين بات يهدد الجهود التقليدية للجماعة الاستشراقية والتى تعتبر أن الإسلام مازال يمثل عنصرًا تفسيريًا أساسيًا لفهم المجتمعات والشعوب الإسلامية، لذا فقد حرص عدد من كبار رواد المدرسة الاستشراقية التقليدية على التأكيد على استمرارية تأثير العوامل الحضارية والدينية واللغوية حتى فى ظل الأطر الجغرافية والسياسية والاقتصادية الجديدة،.فقد دعا برنارد لويس فى مقالته آنفة الذكر "إعادة التفكير فى الشرق الأوسط" إلى إعادة التفكير فى مفهوم الشرق أوسطية حيث أعلن؛ وإن بشكل ضمنى، عن موافقة المؤسسة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الاستشراقية على إحلال هذا المفهوم الجديد محل المفهوم التقليدى عن الشرق واستخدامه فى التعامل مع المنطقة بشرط ألا يعنى ذلك إهمال الأبعاد الحضارية والدينية والثقافية التى تعج بها هذه المنطقة، على اعتبار أن إهمال هذه الأبعاد لن يؤدى إلا إلى تقديم صورة قاصرة عن المجتمعات أيًا كان وصفها.

الإسلام فى الخطاب الفكرى الغربى

هل يمثل المسلمون أمة من دون الناس؟ أو بالأحرى هل يتم النظر إليهم على اعتبارهم كذلك؟ سؤال واحد له إجابات متعددة فى ثنايا الخطاب الفكرى الغربى، وهى إجابات لا يحكمها الفكر وحده كما قد يفترض وإنما يتدخل فى صياغاتها العديد من العوامل السياسية والتاريخية والأيديولوجية. فمعظم التيارات والمدارس والنخب الفكرية لا تستطيع الفكاك من عبء الميراث التاريخى المشحون بالتوتر بين الإسلام والغرب عند محاولتها التصدى لدراسة العالم الإسلامى أو عالم المسلمين، وهذا ما يبدو واضحًا من خلال اتفاق المدخل الذى يستخدمه معظم الدارسين الغربيين لموضوع وحدة العالم الإسلامى، هذا المدخل الذى ينحصر فى محاولة الإجابة على تساؤل واحد وهو: هل تمثل وحدة العالم الإسلامى المحتملة خطرًا على الغرب وحلفائه أم لا؟، هذا التساؤل المتكرر، وعلى الرغم من تنوع الإجابات التى تقدم له، يبرز طبيعة المنظور الذى يتعامل من خلاله الغرب مع الإسلام، كما يوضح الأجندة المحتملة للقضايا التى يمكن أن يثيرها الغرب تجاه العالم الإسلامى، فالإسلام مرتبط بمعنى الخطر فى العقلية الغربية يؤيد ذلك من يؤيده ويدحض ذلك من يدحضه، وعليه فإن كون المسلمين يشكلون وحدة واحدة أو أمة واحدة لا يهم الغرب إلا من خلال هذا المدخل فهو الذى يحدد طبيعة التعامل وبدائل السلوك. موقف الغرب من العالم الإسلامى مرتبط إذن بالإجابة عن هذا التساؤل الذى يصعب الحصول على إجابات "نقية تمامًا" فيما يتعلق به، غير أننا يمكننا أن نميز ــ بقدر من التحكم ــ بين أربعة اتجاهات رئيسية عامة.

الاتجاه الأول يقر بوجود أمة متمايزة يمثلها المسلمون، ولكنه يشفع ذلك بالتأكيد على أنها أمة خطرة، متى توافرت لها أسباب الانبعاث أثرت بالسلب على موازيين القوى السائدة وعلى الوضع المهيمن الذى تتمتع به الولايات المتحدة الأمريكية وربيبتها إسرائيل فى النظام العالمى الراهن. فتبلور الإسلام على شكل أمة لن يتم إلا على حساب استقرار النظام الدولى وتحوله بشكل كامل عما هو عليه منذ نهاية آخر مراحل توتره، أى منذ نهاية مرحلة الحرب الباردة. ويشدد هذا الاتجاه على الطابع العنيف للإسلام من حيث هو دين وبالتبعية على عنف المسلمين وعلى تعطشهم للقتال وشن الحرب المقدسة. فكما كانت الدولة العثمانية القديمة هى رعب العالم فإن الإسلام المعاصر والأمة الإسلامية المحتملة يمكن أن يمثلا إرهاب العالم، وكما كان الاتحاد السوفيتى المنصرم هو الخطر الأحمر فإن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الإسلام يمكن أن يمثل وريثًا له كخطر أخضر.

الاتجاه الثانى يدحض فكرة تمايز المسلمين عن غيرهم فى شكل أمة، فالإسلام لا يمثل جنسية أممية عابرة للحدود، كما أن الاختلافات القائمة بين جماعات ودول المسلمين، إن صح أن هناك دولًا إسلامية أصلًا، أقوى من الرابطة التى يمكن أن توفرها العقيدة الدينية والانتماء إلى دين واحد. ويرفض أنصار هذا الفريق الاعتراف بفكرة وجود إسلام لازمني، أو إسلام عابر للأحقاب وممتد عبر التاريخ، فالإسلام الذى أنشأ جماعة متمايزة ذات صفات حضارية وعقدية خاصة فى مرحلة معينة من التاريخ قد تخطته الأحداث، وتجاوزته الصراعات التى نشبت فيما بين المسلمين أنفسهم. وعليه يرى هؤلاء بأنه من غير الممكن أن نستخدم "الإسلام" كعنصر تفسيري لفهم موضوعات وقضايا الدول التى تضم أغلبية من المسلمين، فهذه الدول لا تملك أى مقومات خاصة لكى تتم معاملتها بشكل استثنائي، فكل من الدين أو الحضارة لا يمكن أن يسهم إلا بنصيب متواضع للغاية فى فهمنا لقضايا عالم تتحكم فيه اعتبارات الأسواق المفتوحة والاقتصاد الحر. وعليه يرى أنصار هذا الاتجاه أن تغليب الاعتبارات الحضارية أو الدينية يمثل نزوعًا عاطفيًا للاحتكام إلى التاريخ فى قضايا تتم فى سياق ومناخ لا مكان فيهما للعاطفة ولا جدوى فيهما من الاحتكام إلى التاريخ.

الاتجاه الثالث يعترف بوجود أمة إسلامية غير خطرة ولكنها أيضًا غير فاعلة، فهو اتجاه يدافع عن حق المسلمين فى التواجد فى العالم تحت مسماهم هذا ولكنه يجردهم من مقومات الفاعلية ومن معنى التجمع، فهم ينتمون لأمة متعددة، بل ومتنافرة أيضًا فى معظم الأحوال. ولا ينكر هذا الاتجاه على بعض المسلمين محاولاتهم الإحيائية (ولا يعتبرها أصولية بالمعنى السلبى للكلمة) لإعادة التمسك بتعاليم دينهم، ولكنه يفترض أيضًا أن فكرة وجود إسلام موحد كانت دائمًا ما تمثل خرافة يصنعها الآخرون لتعبئة المشاعر ضد هذا الدين، أو يتبناها المسلمون أنفسهم كنوع من الرومانسية الحالمة التى لا تستند إلى أساس موضوعى فى تحليل التاريخ الإسلامى. فوفقًا لهذا الرأى فإن وحدة المسلمين ــ مع التسليم جدلًا بإمكانية قيامها ــ لا تملك مقومات الاستمرار، فالمسلمون لم يكونوا فى أى مرحلة من مراحل
تاريخهم يمثلون شيئًا متجانسًا، وإنما كانوا دائمًا جماعات متنوعة مختلفة متعددة المشارب والأعراق والاهتمامات، الأمر الذى يجعل من فكرة الكيان الإسلامى الموحد أحد الخرافات الرائجة بدون وجه استحقاق.

أما الاتجاه الأخير فهو اتجاه مشجع لفكرة الحوار بين الأديان ولعملية التمازج الحضاري بين أتباع الأديان السماوية الكبرى، وقد ظهر هذا التيار على الساحة الفكرية الغربية مع انتهاء فعاليات المجمع المسكونى العالمى الثانى للفاتيكان فى الستينات والداعية إلى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تنشيط الحوار بين أتباع الأديان التوحيدية الثلاثة وذلك كخطوة مبدئية لإعادة الناس على امتداد المعمورة إلى الإيمان. ويرى هذا الاتجاه أن الحضارة المعاصرة يمكنها أن تجنى الكثير إذا ماحدث تقارب إسلامى مسيحى؛ قائم على الاعتراف والاحترام المتبادلين، كما يعتبر أنصار هذا الاتجاه أن التعاون والتعاضد فيما بين الأديان يمكن أن يمثل عنصرًا هامًا لمواجهة الاتجاهات العلمانية التى تشن حربًا على التقاليد الدينية وتعتبر أن القيم تمثل أحد مخلفات الماضى الذى ينبغى تجاوزه. وفيما يلى عرض موجز لنماذج من التيارات السابقة

الاتجاه الأول، المروج لفكرة الخطر الإسلامى، تمثله عدة أسماء تتمتع بالصيت الواسع والحجية المعتبرة، مثل صمويل هانتجتون، ديفيد سينجر، دانيل بايبس، باتريك بوكانان، برنارد لويس، تشارلز كراوثامر، ... إلخ، وهو الأمر الذى يكسب تحليلاتهم ذات الصلة أهمية إعلامية وانتشار واسعين بين النخب الفكرية. وعادة ما تتنوع اللافتات التى يتم استخدامها من قبل هذه الزمرة للترويج لفكرتها وللتأكيد على قناعتها بشأن جدية الخطر الذى يمثله الإسلام بالنسبة للغرب. البعض يلجأ إلى العبارات الموحية والعناوين الرنانة من نوع "جذور الغضب الإسلامى[٢١]، والمسلمون قادمون[٢٢]، خطر الإسلام الراديكالى[٢٣]، سيف الإسلام[٢٤]، القنبلة الإسلامية[٢٥]... إلخ". فيما يفضل البعض الآخر اللجوء إلى عناوين استفاهمية بريئة من قبيل: "هل ثمة خطر إسلامى[٢٦]؟"،"هل يمثل الإرهاب الإسلامى تهديدًا لليهود؟"[٢٧]. وأما البعض الآخر ؛وهو الأقل؛ فيستخدم العناوين التقليدية والمحايدة إلى حد ما مثل: "الإسلام والغرب" و"الإسلام والحداثة"[٢٨].

وكما تتراوح اللافتات تتراوح القضايا التى يتناولها أعضاء هذا الفريق وتتعدد المسالك التى يستخدمونها للتأكيد على فكرتهم، فالبعض يتناول المسألة من زاوية سياسية بحتة وينطلق فى حديثه بدافع من الرغبة فى إسداء النصح إلى الإدارة الأمريكية أو الحكومة اليهودية، فيبدأ فى سرد القضايا التى تحمل فى طياتها تهديدًا ــ مفترضًا ــ للغرب وحلفائه والتى تكون أحد الدول أو الأنظمة الإسلامية طرفًا فيها، وينطلق أصحاب هذا التوجه من فرضية مفادها أنه متى تشكل تحالف إسلامى ــ بين الأنظمة الإسلامية أو بين الجماعات الإسلامية المسلحة ــ فإن ذلك كفيل بأن يتسبب فى حالة من التوتر الدولى الذى قد يتعدى فى خطره آثار الحرب الباردة، ويأتى خطر قيام تحالف إيرانى ــ سودانى يقوم بتصدير الثورة الإسلامية والإرهاب إلى دول العالم الغربى على رأس القائمة[٢٩].

وبخلاف الحديث عن المخاطر المحتملة لقيام تحالف إيرانى ــ سودانى محتمل بدوره وموجه إلى كافة دول العالم؛ ينسج هؤلاء المحذرون من عدد من الأحداث المتفرقة منظومة واحدة تعبر ــ وفقًا لهم ــ عن جدية التهديد الذى يمثله المسلمون على امتداد خريطة السياسة العالمية وتنذر بنشوب صراع

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

جديد مع عدو جديد لا يقل فى خطورته عن العدو السوفيتى المنصرم، وتشمل هذه المنظومة غير المتجانسة حوادث من نوعية : تفجير مركز التجارة العالمى على يد أحد المسلمين، الحرب الأهلية فى السودان بين الشمال "المسلم" والجنوب "المسيحى"، الشعبية التى تتمتع بها الأحزاب الإسلامية فى العديد من الدول العربية المعتدلة، الدعم المادى والمعنوى الذى ساد العالم الإسلامى تجاه مسلمى البوسنة، عدم الاستقرار الذى يسود بلدان آسيا الوسطى الإسلامية والدعم الإيرانى المكثف لهذه البلدان، الصراع فى الجنوب اللبنانى من خلال حزب الله الموالى بدوره لإيران، الانتفاضة الفلسطينية التى لا تكل فى الأراضى المحتلة، المشاكل التى يمثلها تواجد المسلمين بشكل مكثف فى منطقة البلقان. وبشكل عام فإن كافة الأحداث التى يمثل المسلمون طرفاً فيها وتثير نوعًا من التوتر على المستوى العالمى ينظر إليها على أنها جزء من منظومة واحدة تنذر بعودة الإسلام العالمى على الساحة الدولية من جديد(٣٠).

ورغبة منهم فى أن تتمتع تحليلاتهم بالرواج الإعلامى المطلوب ينحو بعض أنصار هذا التيار ناحية التركيز على المخاطر التى تمثلها عودة الإسلام بالنسبة للدولة العبرية المسالمة، على اعتبار أن الحديث عن الخطر الإسلامى من ضمن فوائده أن يعطى دفعة قوية لفكرة معاداة السامية والتى تجعل الشأن اليهودى دائمًا تحت الأضواء. وكما يلاحظ من منظومة التهديدات السابقة فإن معظم القضايا التى تعرض على أنها نذر سوء للعالم تركز بالأساس على المخاطر التى تواجه الولايات المتحدة وإسرائيل فى المقام الأول. وفى هذا السياق تتعدد التحليلات التى تخدم هذا الطرح كما يتعدد المروجون لها. فقد أصبح تملق الأوهام اليهودية يجتذب العديد من الأسماء الشهيرة فى مجال التحليل السياسى والعلاقات الدولية مثل ديفيد سينجر الذى تفرغ للحديث مؤخرًا عن موضوع معاداة السامية. ففى التقرير الدولى عن معادة السامية والذى يصدره معهد الشئون اليهودية الدولية فى لندن بالتعاون مع اللجنة اليهودية الأمريكية فى نيويورك، أكد سينجر على أن معاداة الشعب اليهودى تمثل أصلًا مستقرًا عليه فى الأصول الإسلامية الأمر الذى يستدعى من الحكومة اليهودية أن تأخذ هذا الأمر بجدية أكبر، "فالحديث الآن عن كراهية صريحة لليهود فى كل مكان وفى أى مكان انطلاقًا من نظرة إسلامية عامة"(٣١).

ويعتبر تفجير المركز اليهودى فى مدينة بيونس أيرس هو الشاهد الأساسى لدى هؤلاء على استهداف اليهود ــ متى تباعدت بهم السبل ــ من قبل المسلمين، على الرغم من أن التحريات ذات الصلة لم تثبت بشكل يقينى تورط مسلمين إيرانيين فى هذه الحادثة، إلا أن إلحاق التهم بالمسلمين قد أصبح يمثل نغمة ثابتة فى الآونة الأخيرة انطلاقًا من القناعات السابقة حول الإرهاب الإسلامى بطول العالم وعرضه(٣٢).

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وبخلاف المنحى السياسى الذى يوظفه بعض المحذرين من عودة الخطر الإسلامى متجسدًا فى عودة الأمة الإسلامية، ينحو البعض الآخر المنحى الثقافى والحضارى والذى يؤكد أنصاره على أن الإسلام يمثل خطرًا حقيقيًا على قيم الغرب وثقافته وأهدافه ويدعون من ثم كل المؤمنين بهذه القيم وبعالميتها إلى الوقوف فى وجه هذا الخطر. وقد تبنى صامويل هانتنجتون هذا المنظور فى أطروحته الشهيرة عن صراع الحضارات[٣٣] والتى أكد فيها على أن الحضارات غير الغربية تسعى إلى أن تقتبس من الغرب مدنيته ولكن من دون أن تتطبع بطابعه الغربى، فهى تسعى إلى تحصيل الثروة والتقنية الغربية واستيعاب ذلك فى أطرها الحضارية ذات الأنماط القيمية والثقافية المختلفة، الأمر الذى يهدد وفقًا له بنشوب صراع حضارى شامل بين الغرب من جهة والإسلام والكنفوشيوسية من جهة أخرى، صراع يكون المتحكم الأساسى فيه هو منظومة القيم التى تعكس الثقافة الأصلية المحددة لذاتية الأفراد وليس الثقافة المصنوعة من خلال تبنى أيديولوجية معينة على سبيل المثال. وقد قدمت أطروحة هانتنجتون الإطار النظرى الذى كان يفتقر إليه أنصار هذا التيار، حيث أصبح فى إمكانهم الآن أن يتحدثوا عن فكرة الخطر من دون أن يتهموا بالديماجوجية أو التحريضية، فقد قدم لهم هانتجتون الدعامة الفكرية التى تلم شتات تحليلاتهم. وعلى الرغم من كل الانتقادات التى وجهت إلى هذه الأطروحة والتى عكست قناعات مختلفة أجمعت فيما بينها على رفض المسوغات التى قدمها هانتجتون لدعم نظريته[٣٤]؛ إلا أن مقولة صراع الحضارات التى أفرزتها هذه الأطروحة؛ مع ما تستبطنه من حتمية الصدام مع عالم المسلمين؛ قد أصبحت جزءًا من مفردات السياسة العالمية.

وإذا كان السائد فى الخطاب السياسى الغربى أن يتم التفريق بين الإسلام من حيث هو دين سماوي يدعو إلى الأخلاق والقيم وبين سلوك الجماعات المسلحة التى تشن تحت لوائه حربًا مقدسة ضد الغرب، فإن أصحاب نظرية الخطر الإسلامى عادة ما يسقطون مثل هذا التمييز من حسبانهم، فالإسلام عند هؤلاء هو الذى شكل البيئة الفكرية التى ترعرع فى ظلها الإرهاب وانطلق ليغزو العالم، وذلك نظرًا للطابع العنيف الذى يتميز به وللخبرة القتالية المرتبطة به فى معظم فترات تاريخه الطويل، ولذا فإنه من غير الملائم أن يتم التمييز بين الاثنين، أى بين الإسلام والمسلمين. وعادة ما يركز هؤلاء على عدد محدد من الموضوعات التى تبرز وفقًا لهم تلك الصفة فى الإسلام وعلى رأسها: مسألة الحدود الشرعية، موضوع حقوق الأقليات ومعاملة أهل الذمة، مسألة حقوق المرأة، ويلحق بها موضوع حقوق الإنسان وتعدد الزوجات، وأخيرًا وليس آخر موضوع الإمكانات الديموقراطية فى الإسلام[٣٥].

البعد الثالث الذى يستخدمه مؤيدو فكرة الخطر الإسلامى هو ذلك المتعلق بالخطر الديموجرافى الذى يمثله التواجد الإسلامى فى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الغرب. وفى هذا السياق تبرز العديد من الأصوات التى تحذر من مخاطر تنامى الوجود الإسلامى فى البلدان الأوربية، وبخاصة فى دول مثل فرنسا وألمانيا ويوغوسلافيا السابقة. ففى فرنسا دعت الجبهة الوطنية اليمينية بزعامة لوبان صراحة إلى طرد ما يصل إلى ثلاثة ملايين مهاجر مسلم إلى أوطانهم، ونجحت فى إثارة مناخ يتسم بالعنف والعنصرية المعادية للعرب. أما فى ألمانيا فقد تنامت حركة العداء ضد الوجود التركى والألبانى بشكل مكثف فى الآونة الأخيرة وبخاصة بعد ظهور الجماعات المسماه بالنازيين الجدد. وفى يوغوسلافيا السابقة أصبحت النزعة القومية الصربية جزءًا لا يتجزأ من سياسة الحكومة. وأخرج الأكاديميون الصرب ــ الذين عبأهم النظام ــ تاريخًا ينكر شرعية الطوائف المسلمة فى البلقان؛ سواء البوسنية أو الألبانية أو البلغارية ويسعى إلى تصوير المسلمون على أنهم يلعبون دورًا رئيسيًا فى مؤامرة أزلية معادية للصرب ومعادية للأوربيين[٣٦].

ويحاول بعض أنصار هذا الاتجاه أن ينفوا عن الأذهان فكرة أن الإرهاب أو الخطر الإسلامى محصور فى ثنايا طائفة محدودة غير ذات تأثير من بين جموع المسلمين الضخمة، فهذه الجماعات وفقًا لهؤلاء لا تستمد نفوذها وشعبيتها إلا من هذه الجموع التى قد تبدو محايدة، بل ويذهب Reuven Paz وهو مدير لمركز دراسات ومتخصص فى شئون العالم الإسلامى إلى أنه ليس فقط الجموع الشعبية هى التى توفر قواعد لدعم ومساندة الجماعات الإرهابية وإنما أيضًا الحكومات العربية والإسلامية والتى اعتاد الغرب أن يصفها بالاعتدال. فهذه الحكومات تمارس نوعًا من التملق ومداعبة الإحساس الدينى لدى شعوبها وذلك من خلال اتهام الغرب وإدانته فى العديد من القضايا الأمر الذى يساعد على تغذية المشاعر المعادية للغرب فى أوساط الجماهير ويدفعها من ثم إلى الثقة بشكل أكبر فى الجماعات المسلحة التى تواجه الأهداف والمصالح الغربية، وينتقد باز الردود التى صدرت عن معظم الحكومات العربية والإسلامية فى أعقاب قيام الولايات المتحدة بتوجيه ضربات جوية إلى كل من السودان وأفغانستان "فبدلًا من أن تقوم حكومات هذه الدول بإيضاح أن هذه الضربات هى عمل من أعمال مكافحة الإرهاب الدولى قامت بانتقادها معتبرة إياها عدوانًا غير مبرر"[٣٧]، ويلمح باز إلى أن بعض هذه الحكومات قد تبدى تعاطفًا مع ما قد يقوم به الإرهابيون على اعتبار أن ما يقومون به هو نوع من أنواع الدفاع عن النفس، فى الوقت الذى تنظر فيه نفس هذه الحكومات إلى الضربات الأمريكية على سبيل المثال على أنها لون من جرائم الحرب. وهكذا فإن تقسيم عالم المسلمين بأى شكل لن يكون أمرًا صائبًا وفقًا لوجهة النظر السابقة على اعتبار أن الجميع يشاركون فى صياغة موقف عدائى من الغرب سواء فى ذلك الجماهير العريضة أو الحكومات المحافظة أو الراديكالية فضلًا عن الجماعات الإرهابية ذاتها. ويتوج

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أصحاب هذا الرأى موقفهم بإسداء النصح للحكومات الغربية وعلى رأسها الإدارة الأمريكية بألا تظن أنها فى حربها ضد الإرهاب تواجه طائفة معزولة أو هامشية التأثير وإنما تواجه قطاعات عريضة تضم كل من يشكلون مراكز لدعم الحركات الإرهابية فى حربها ضد الغرب.

الاتجاه الثانى، الرافض لفكرة وجود أمة إسلامية، ينطلق من قناعة مغايرة مفادها أن الإسلام لا يمكن أن يمثل ظاهرة لازمنية، فهو كغيره من العقائد الدينية لا يملك إمكانات الاستمرار إلى الأبد بنفس القوة الدافعة التى بدأ من خلالها. أنصار هذا الاتجاه يرون أن العقائد الكلية إن كانت ماتزال موجودة فى عصرنا الحاضر فذلك بفعل قوى القصور الذاتى وليس بفعل امتلاكها لقوى متجددة قادرة على اكتساب المزيد من الاتباع والمؤيدين يومًا بعد يوم، الأمة الإسلامية بهذا المعنى هى بقايا كيان تواجد فى حقبة تاريخية معينة، امتلك فى أثنائها مقومات معينة للترابط ولكن هذه لم تعد سارية المفعول بعد هذه الفترة الزمنية الممتدة.

وانطلاقًا من هذه القناعة يدحض أنصار هذا الاتجاه فكرة الأمة الإسلامية التى يروج لها أنصار الاتجاه الأول، فالمسلمون الآن هم أشبه ما يكون بظاهرة فسيفسائية تضم فى طياتها العديد من الجماعات العرقية والقومية والمذهبية التى تتنافس فيما بينها أكثر مما تتعاون وتستشعر عناصر الخلاف أكثر مما تستشعر نقاط الاتفاق. ويؤكد ليون هادر، أحد أنصار هذا الاتجاه، على عدم تجانس المكون الإسلامى، فالمسلمون فضلًا عن انقسامهم فيما بينهم بفعل عوامل العرق والقومية والمذهب، فإنهم ينتشرون على امتداد رقعة جغرافية واسعة غير متجانسة وغير مترابطة فى معظم الأحيان، كما أن الإسلام لا يشكل ــ وعلى خلاف الشيوعية فى أيامها الخوالى ــ أيديولوجية متماسكة، وإنما هو أشبه ما يكون بمظلة تضم تحتها العديد من الأيديولوجيا السياسية غير المترابطة. ويرد هادر الصحوة الإسلامية؛ التى أوحت للكثيرين بإمكانية قيام تجمع إسلامى موحد؛ إلى الظروف المضطربة التى ترتبت على استيراد الحداثة من الغرب وليس إلى إعادة التفاف المسلمين حول دينهم من جديد. فالغالبية العظمى من المسلمين لاذت بالمساجد تمردًا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية التى شهدتها بلادهم فيما ظلوا فيما بينهم منقسمين فكريًا ولا يجمعهم هدف واحد[٣٨].

ثمة اتفاق إذن بين أنصار هذا التيار على أن مسألة التجمع الإسلامى الذى يمثل وحدة متناغمة هى أسطورة لم يعد هناك ما يبررها على أرض الواقع، فقد اختفى ذلك الخطر الذى كان من الممكن أن تثيره أمة إسلامية موحدة، وعلى حد قول البعض، فإن القوات الإمبراطورية التى أبعدت عن بوابات فيينا وبودابست فى القرن السابع عشر قد تبخرت مع زوال الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد[٣٩].

وتتبنى قناعة "اختفاء الخطر الإسلامى" لدى أنصار هذا الرأى فى قدر كبير منها على اعتبارات السياسة الواقعية والمؤشرات العملية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لقياس القوة، فوفقًا لهم فإن مجموع قوى العالم الإسلامى تقل كثيرًا عن الغرب، وهذا على افتراض أن هذه الدول قد شكلت تحالفًا للعمل الموحد فيما بينها،وهو الافتراض الذى يقترب من الاستحالة وفقًا للعديد من المراقبين، فالدول الإسلامية قد التزمت فى مجموعها بمصالحها القومية الخاصة، وفى أحيان كثيرة حارب بعضها بعضًا، وإذا كان البعض يخشى من غوائل ما يمكن أن تحدثه القنبلة النووية الإسلامية من دمار، فإن اعتبارات التوازن العسكرى تظهر بوضوح حجم القيود التى تحول دون استخدام مثل هذا السلاح، فضلًا عن أن الكثيرين يشككون فى مدى مصداقية وصف القنبلة بـــ "الإسلامية"، على اعتبار أن المصالح القومية وليس الانتماء الدينى هو الذى يحدد كيفية استخدام مثل هذا السلاح(٤٠).

ويذهب George Joffe أحد أنصار هذا الاتجاه إلى أن ما يردده البعض عن احتمال قيام تحالف سياسى بين بعض الأنظمة الإسلامية هو أمر يفتقد الإمكانية الواقعية، "فالإسلاميون يتبادلون الاتصال ويتبادلون التنسيق ولكنهم يفتقرون إلى المشروع الواحد الذى يجعلهم فى النهاية يمثلون خطرًا". فالإسلام وفقًا لجوف لا يمكنه أن يشكل خطرًا أو تهديدًا للغرب، فهو مشتت للغاية؛ متعدد الأجنحة، متعدد الأهداف، مشغول بقضاياه الداخلية الخاصة والتى تجعله فى معظم الأحيان فى موقع الدفاع وليس فى موقع الهجوم. فـــ"التوتر الداخلى فى عالم المسلمين يفوت عليهم أى فرصة لمجابهة الغرب كما أنه يجعلنا فى حل من شغل أنفسنا بقضية الصراع المزعوم بين الحضارات"(٤١) .

ولا يؤمن هذا التيار بدقة ما يسمى بالاستشراق، على اعتبار أن أحد القناعات التى ينهض عليها عمل المستشرقين هى وجود منطقة خاصة من العالم يسكنها المسلمون ولا يمكن فهم مسالكها إلا من خلال تحليل الإسلام على اعتبار أن الأخير هو المحدد الأساسى لكثير مما تشهده المجتمعات الإسلامية من أحداث وتطورات.

وبطبيعة الحال يرفض أنصار هذا التيار ومنهم "فريد هاليداى" كل ما يقال عن وجود إسلام لازمنى، أو إسلام غير قابل للتغير، فالمدى الزمنى الطويل الذى شهدته التجربة الإسلامية كان كفيلًا بإصابة هذه بالترهل وجعلها قابلة للاختراق من قبل الاتجاهات الليبرالية والعلمانية، وهذا ما يجعل التعويل على الإسلام كعنصر تفسيرى لفهم ما يجرى فى مجتمعات الشرق القديم محل شك كبير من قبل هؤلاء(٤٢).

ويؤكد هاليداى على أن المسلمين لا يمتلكون شيئًا خاصًا جدًا يبرر أن يتم إفرادهم بنوع مستقل من الدراسة والتحليل، فالمسلمون وفقًا لهاليداى هم مجرد جماعة عادية تحمل كل ما يحمله غيرها من أوهام وطموحات وعقد تاريخية، وعليه فإنه من المنطقى أن يتم تحليل قضاياهم من خلال مناهج التحليل الاجتماعى التقليدية وليس من خلال مدرسة فكرية متمايزة تسمى نفسها بمدرسة الاستشراق(٤٣).

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الاتجاه الثالث فإنه لا يغفل تأثير الدين فى تحليل المجتمعات الإسلامية، كما أنه لا ينكر أن الإسلام يمثل خاصية تحليلية هامة لفهم شعوب الشرق القديم، ولكنه ينكر أن يكون المسلمون قد ظهروا أثناء أى فترة من فترات تاريخهم فى شكل أمة موحدة. ويستند أنصار هذا التيار على الخبرة التاريخية لعالم المسلمين للتأكيد على أن وحدة المسلمين لم تكن فى يوم من الأيام واقعًا يمكن رصده. "ففى الماضى ورغم التأكيد على صيغة التوحيد فى الإسلام، ظهرت الكثير من المذاهب والتفسيرات الإسلامية: كالسنة والشيعة والخوارج والوهابيين والمدارس المختلفة للشريعة والفقه والتصوف. كما أننا فى عالمنا المعاصر نجد أن السياقات المختلفة قد أفرزت طائفة متنوعة من الأمم والزعامات والمنظمات ذات التوجه الإسلامى"(٤٤).

ويعتبر أنصار هذا التيار أن المسلمين قد دأبوا على الحديث عن الأمة الإسلامية الواحدة متأثرين فى ذلك بنوع من "الرومانسية التى أنستهم قدر الدينامية والتغير اللذان اتصف بهما التاريخ الإسلامى فى مراحله الأولى"(٤٥)، فالمسلمون ــ وفقًا لهذا الرأى ــ يرفضون أن يعترفوا بالأمر الواقع ويأبون قبول التغير باعتباره غير أصيل وبعيد عن العقيدة الصحيحة. ومن أبرز ملامح التغير التى مازال يرفضها الكثير من المسلمين اختفاء معنى الأمة الإسلامية الواحدة. أما من فعل ذلك ــ أى الحديث عن الأمة الإسلامية الموحدة ــ من غير المسلمين فقد فعله لأغراض تعبوية أو تحريضية لا جدال فيها. "ففى الماضى كما فى يومنا هذا كان الخوف من توحد التهديد الإسلامى غالبًا ما يتم التعبير عنه فى مصطلح الأمة الإسلامية، وحيثما كان هناك أى مظهر من مظاهر معاداة الاستعمار؛ حتى لو كان مجرد رد فعل محلى بحت، فإن المسئول عن ذلك هو التجمع الإسلامى"(٤٦).

ومما يثير اللبس فيما يتعلق بتحليل خطاب هذا التيار؛ فضلًا عن عدم تمايزه بشكل كامل عما سبقه من تيارات أو عما يليه منها؛ هو أنه يأتى عادة فى شكل خطاب دفاعى ــ ليس عن فكرة الأمة الإسلامية بطبيعة الحال ــ ولكن عن المسألة الإسلامية إن جاز القول. فهو يتبنى الدعوة إلى فهم قضايا المسلمين على نحو أفضل وإلى نبذ الصور الذهنية التقليدية التى تستلهم فكرة الصراع الحضارى بين الإسلام والغرب، كما يدعو أنصار هذا التيار إلى قبول فكرة دمج المسلمين فى العالم المعاصر على نحو أعمق مما هو عليه وإلى قبول الآخر المسلم بنفس الدرجة التى تم بها قبول الآخر الآسيوى أو الآخر الشرق أوربى، ولكن على الرغم مما سبق فإن أنصار هذا التيار لا يتوقعون أن تتلاشى الفوارق تمامًا بين الشرق والغرب، فسوف يظل الأول ذلك العالم الغامض الذى يصعب التنبؤ بتصرفاته المحتملة، نظرًا لتعدديته المبالغ فيه فضلًا عن لاعقلانيته الدينية التى كثيرًا ما تصدم الغرب. ويبدو ذلك الفهم فى دعوة أحد أنصار هذا التيار، وهو جون اسبوسيتو؛ لكى يتم استبدال الحديث عن الخطر الإسلامى بالحديث عن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

التحدى الإسلامى[٤٧]. فالإسلام بهذا المعنى لا يشكل تهديدًا للغرب، لأنه لا يوجد إسلام موحد كما يفترض البعض كما أنه لا يوجد كيان واحد يعبر عن المسلمين، وإنما تحديًا لمصداقيته ولمدى تمسكه بقيمه التى يفترض أنها قيم عالمية صالحة للتطبيق على الجميع من دون استثناء، وعلى رأسها قيم التسامح والديموقراطية وقبول الآخر. "لا يجب اعتبار قدرة الإسلام والحركات الإسلامية على الحياة والنماء تهديدًا وإنما يجب اعتبارها تحديًا ... فالأمر المؤكد أن الاعتراف بما هناك من اختلاف وأوجه كثيرة للإسلام سوف يلغى تصورنا عن وجود تهديد إسلامى موحد، كما أن هذا الإقرار سوف يقلل من مخاطر اختلاق نبوءات جاهزة عن معركة الغرب ضد الإسلام المتطرف"[٤٨]. فدول الغرب مطالبة وفقًا لهذا الرأى ألا تضن بمظلتها الديموقراطية عن أن تشمل بها الدول الإسلامية أيًا كان توجهها الخارجى، كما أنه ليس من المنطقى أن حالة الابتهاج والنشوة التى سادت فى الغرب بعد سقوط سور برلين وامتداد الموجة الديموقراطية لتشمل بلدان شرق أوربا الغائبة لمدة طويلة عن المعسكر الديموقراطى، هذا الحالة ليس من المنطقى أن تقترن بنوع من الوجوم والحذر عندما تصدر الدعوة المتلهفة المماثلة للديموقراطية هذه المرة من داخل بلدان العالم الإسلامى[٤٩].

وتبدو دعوة هذا التيار موجهة؛ فى قدر كبير منها؛ إلى ضرورة تنبه المعنيين بصنع السياسة فى الغرب عموما وفى الولايات المتحدة خصوصًا إلى طبيعة الأسباب التى تجعل من الإسلام عنصرًا أساسيًا لفهم سياسة الشرق الأوسط، ولكنها لا تقتصر بهذه الأسباب على طبيعة الأزمات السياسية والأوضاع الاقتصادية فحسب وإنما ترد ذلك أيضًا إلى ما تتمتع به العقيدة الدينية فى الإسلام من رونق خاص وتماسك داخلى وشمولية تشريعية، تجعل من اقتران الدين بالسياسة أمرًا غير مستهجن أو مستبعد، وهو الأمر الذى لم ينجح الكثيرون فى الغرب فى فهمه "فحيث تقترن قوة فكرة أو عقيدة ما بالإخفاقات الاقتصادية والسياسية للحكومات القائمة فإن هذا يثير أمرًا غير متوقع أو مفهوم لدى من اعتادوا على تحليل المجتمعات العلمانية ... هذا التحدى باسم الإسلام والذى فرض نفسه على الرؤية العلمانية التقليدية فى العالم غالبًا ما كان يرفض باعتباره تحديًا منحرفًا وغير رشيد ومتطرفًا، ففى عرف الجماعات الليبرالية العلمانية من المفكرين وصناع السياسة والخبراء الغربيين وكذلك الكثيرين من أهل الصفوة فى العالم الإسلامى يعتبر شيوع الدين فى الحياة العامة بالضرورة تهديدًا أصوليًا رجعيًا[٥٠]" إلا أن تلك بالتحديد هى حالة الشرق الأوسط، حيث يقترن الدين بالسياسة بالحياة العامة، وهو الأمر الذى يجعل من تهوين أثر العنصر الدينى فى التحليلات التى تقدم لهذه المنطقة أمرًا مضللًا فى معظم الأحوال.

التيار الأخير الذى نرصده فى هذا الإطار، هو التيار الداعى إلى الحوار بين الأديان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

السماوية الكبرى وعلى رأسها الإسلام والمسيحية، ويرتبط ظهور هذا الاتجاه بالتوصيات التى أصدرها المجمع المسكونى العالمى الثانى الذى عقده الفاتيكان عامى ١٩٦٤، ١٩٦٥، والذى دشن منظورًا جديدًا للكنيسة الكاثوليكية فى التعامل مع أتباع الأديان الأخرى، ففى هذا المجمع تمت تبرئة اليهود من تهمة الصلب الشهيرة التى ظلت تلاحقهم وألحقت هذه التهمة بالإنسانية جمعاء، كما تم تغيير الخطاب الذى كان يتم التعامل من خلاله مع الإسلام والمسلمين؛ ليأخذ نبرة أكثر اعتدالًا، تدعو إلى التعاون بين أتباع الديانتين من أجل دفع وحماية القيم المشتركة فيما بينهما والحث على نسيان أحقاد وعداوات الماضى، والعمل على اكتشاف نقاط الاقتراب والاتفاق فيما بين الديانتين(٥١).

وقد اعتبر إعلان الفاتيكان بمثابة برنامج طويل الأمد يهدف إلى تحقيق غاية بابوية تتمثل فى تحويل البشرية إلى الإيمان من جديد ومقاومة موجة العلمانية التى أخذت تغمر العالم منذ مطلع هذا القرن. ولهذا اعتبر أنصار هذا التيار أنهم وأبناء العالم الإسلامى يقفون فى جانب واحد فى مواجهة التيارات العلمانية التى ترمى إلى اقتلاع القيم والأخلاقيات الدينية من معظم مظاهر النشاط الإنسانى. وعليه لم يجدوا غضاضة فى الحديث عن الأمة الإسلامية بنوع من الاحتفاء كما لم يجدوا غضاضة فى الحديث عن مظاهر الإحياء الإسلامى فى الشرق فضلًا عن مؤشرات انتعاش الوجود الإسلامى فى الغرب نفسه. وذلك انطلاقًا من قناعات معينة حول الأهمية ــ متعددة الأبعاد ــ التى يتمتع بها الإسلام فى العالم المعاصر.

وتقوم فلسفة الحوار؛ الذى يتبناه الفاتيكان، فى قدر كبير منها على اعتقاد مبدئى مفاده أنه كما أن العالم المعاصر قد توحد فى قدر كبير من مظاهره وتفاصيله على المستوى المادى، من خلال العمليات المستمرة لنقل التكنولوجيا والتطبيقات العلمية ــ الغربية بالأساس ــ عبر شتى أنحاء ومناطق العالم؛ فإنه لابد أن يبذل القادة الروحيون جهودًا موازية لتوحيد العالم على المستوى القيمى، بمعنى آخر لابد أن يحدث نوع من التكامل بين الديانات العالمية الكبرى على مستوى ما تتضمنه هذه من تعاليم وأخلاقيات. فطالما أن العلم وحده غير قادر على تلبية كل حاجات النفس البشرية، وطالما أن الطاقة المعنوية لدى الناس تبحث عن متنفس لها بعد أن أوشكت على الانفجار، فإنه لابد من العودة إلى الإيمان مرة أخرى طالما أنه قد أثبت دائمًا أنه الملاذ الناجع لمشاكل الإنسانية. ولكن الأديان الكبرى فى العالم ما زالت تتقاسم نطاقات ثقافية متمايزة، تتباين فيما بينها تباينًا واضحًا، بحيث يطرح كل دين مفرداته ومفاهيمه التى تشكل عقلية الأفراد فى النطاق الثقافى الذى يعمل خلاله؛ وتختلف عن تلك التى تصنع عقلية ومفاهيم الأفراد فى النطاقات الثقافية الدينية الأخرى، ونظرًا لأنه من المتوقع أن يستمر هذا الوضع لأحقاب كثيرة قادمة، فإنه لابديل عن الحوار بين ممثلى هذه الأديان بحيث ينشأ موقف تكاملى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بينها، يتعلم من خلاله أتباع كل دين أن يقبلوا الأديان الأخرى كمكملة لدينهم، وذلك أملًا فى " أن ينشأ على المدى البعيد دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات نوعية داخل هذا الدين، ولكنها فى هذه الحالة ستكون اختلافات مقبولة، بحيث تشبه الاختلافات الموجودة بين المذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، والذين يظلون جميعًا مسلمين على اختلاف مذاهبهم(٥٢)". وهكذا يؤدى الحوار والفكر التكاملى إلى حالة من التعايش المشترك التى يستوعب فيها كل دين شيئًا مما فى الأديان الأخرى بحكم التعايش وسهولة الاتصال.

هذا عن فلسفة الحوار أما عن أساسيات الحوار فيلخصها أنصار هذا الاتجاه فى عدد من النقاط تشمل: تخلى كل جانب عن سياساته الدفاعية وحججه الهجومية، ترك الادعاء بأن دين معين هو أرقى مما عداه من أديان ومن ذلك ترك الادعاء بأن دين معين هو خاتم الأديان، ذلك أن كلمة خاتم تنطوى على استعلاء على الآخرين أو تجاوز لحقوقهم، استبدال الأسلوب التقليدى للتبشير بأسلوب آخر قائم على التعايش بين أتباع الديانات، "**فمن خلال التعايش يصبح الفرد أكثر قدرة على التعبير عن حقائق دينه بطريقة تجعل الآخرين يقدرونه ويفهمونه، كما أنه بدون شك يكون قد بدأ يتجاوب دينيًا مع بعض معتقدات الدين الآخر، كما يحاول إدماج هذه المعتقدات فى ممارساته الدينية**"(٥٣).

ويعد الحوار بهذا المعنى هو بمثابة فلسفة العمل الجديدة للكنيسة الكاثوليكية والتى تهدف ــ ضمن ما تهدف إليه ــ إلى تطوير الفلسفة التقليدية لها والقائمة على الدعوة للمسيحية من خلال التبشير بالمجيء الثانى للسيد المسيح، وخاصة بعد أن اتضحت أوجه القصور التى تميز هذا الأسلوب، فالحملات التبشيرية التى كان يقوم بها الأوربيون والأمريكيون فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لم تعد ممكنة فى العصر الحديث إلا ــ ربما ــ فى الحالات المنعزلة، ذلك أن النجاحات الرئيسية التى حققتها الكنيسة الكاثوليكية فى هاتين المرحلتين كانت بالأساس بين شعوب ذات ثقافات بدائية وتفتقر إلى أى دين ذى تنظيم راق، كما كان الحال على سبيل المثال فى أنحاء كثيرة من أفريقيا، التى كانت ثقافاتها المحلية فى مرحلة الانهيار قبل أن تتبنى مناطق واسعة منها الديانة المسيحية. أما المرحلة الراهنة فقد سجلت إخفاقًا واسعًا للأنشطة التبشيرية بأسلوبها التقليدى، ذلك أن الحركة التبشيرية الحديثة قد خاضت فيها غمار اختراق مناطق العالم الثقافية التى تسيطر عليها الأديان الأرقى، والتى يرغب سكانها فى معظمهم فى الاقتباس من الحضارة الغربية تقنياتها ولكنهم فى ذات الوقت يبدون ارتباطًا عميقًا بدينهم الذى يشعرون أنه أرقى من أديان الآخرين، ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية فى هذه المناطق محدودًا للغاية، فمعظم من تحولوا عن دينهم فى هذه المناطق ودخلوا فى دين المبشرين لم يكونوا من صلب التكوين الثقافى الأصلى لبلادهم، وإنما كانوا عبارة عن جماعات تعيش

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

على هامش ثقافة بلادها، أو كانت جماعات لا تحظى بوضع اجتماعى مريح فى نطاق هذه الثقافة السائدة، وينطبق هذا القول على نحو خاص على المناطق التى تسودها الثقافة الإسلامية(٥٤).

الإخفاق التبشيرى الذى سجله عدد من الكتاب المسيحيين أنفسهم؛ مثل المستشرق المخضرم مونتجمرى وات، هو الذى استدعى ذلك التغير فى أسلوب وفلسفة عمل الكنيسة الأم، وبموجب ذلك دخل مصطلح الحوار قاموس التعامل الخارجى للفاتيكان، وأصبح وضعه موضع التطبيق من لزوميات الإيمان الصحيح بالمسيحية، حيث بات يحظى باحترام لم يعد يشاركه فيه مصطلح التبشير الذى فضلًا عن فقدانه لبريقه القديم فإنه أصبح غير قادر على أن يستمر فى الوقت الحاضر وفقًا لنفس الأسلوب الذى بدأ به منذ قرن أو يزيد.

ولكن الحوار ــ شأنه فى ذلك شأن التبشير ــ يفهم بطرائق مختلفة ويطبق أيضًا بطرائق مختلفة، "فهو بالنسبة للبعض مؤتمرات وندوات تنتهى بتوصيات جماعية، وهو بالنسبة لآخرين لا يعدو أن يكون اجتماع عدد من اللاهوتيين المسيحيين، والعلماء المسلمين ليصدروا تصريحات بشأن المسائل الخلافية فى العقائد، بل إنه هناك من يتحدث عن الحوار بشكل أحادى، وكأنما ليس هناك إلا طرف واحد؛ مثل ذلك الكاتب الذى لخص رؤيته للحوار فى ذلك النداء الذى وجهه للمسلمين قائلًا : إننا نطلب منكم بشكل خاص يا من تؤكدون بشدة على القرابة القوية بين دينينا أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئًا أكثر وأفضل من ثقافتكم؛ ألا وهو كلمة الحياة، رؤية مملكة الرب والأمل النهائي، الأمل الذى لا ينتهى والذى نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد : إنه يسوع المسيح"(٥٥).

الإسلام فى الخطاب الرسمى الغربى

يحتل الإسلام موضعًا بارزًا فى الخطاب الرسمى الغربى. وذلك فى إطار شبكة من التنويعات المختلفة؛ التى نكتفى منها بنموذجين، النموذج الأول هو نموذج التعامل البراجماتى، الذى يتعامل مع الإسلام تعاملًا إعلاميًا، فيكتفى بالتطرق إليه بوصفه دينًا عالميًا فى إطار عام من عبارات الإشادة والإطراء حتى لو تناقضت هذه مع المواقف الفعلية، فالمهم فى هذا النموذج هو عدم استثارة العداوة الصريحة مع أى طرف ذى ثقل على الخريطة الدولية، بما فى ذلك الإسلام والمسلمين، والعمل على الاستفادة من كل الاحتمالات التى قد ترتبط بالشأن الإسلامى، وأما النموذج الثانى فيأتى فى إطار أكثر تحليلية يقوم على التعامل مع الأفكار الأساسية التى تشكل النسيج النظرى للإسلام، ويلتزم هذا النموذج النبرة التصالحية التى تهدف إلى مد جسور التفاهم بين الشرق والغرب، وعدم استثارة العداوات القديمة أو بعثها من جديد.

التعامل البراجماتى ينطبق على حالة الخطاب الأمريكى الرسمى والذى يعبر عنه الرئيس بل كلينتون والذى أخذنا بعض تصريحاته الرسمية كنموذج لموقف الإدراة الأمريكية الرسمى من العالم الإسلامى ومن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المسلمين الأمريكيين. ويستمد التعامل الأمريكى مع الإسلام قدرًا كبير من براجماتيته من الطابع اللاتاريخى لخبرة التعامل بين الولايات المتحدة والإسلام، فليس ثمة ميراث تاريخى مثقل بالعداوة بين الطرفين كما هو الحال فى أوربا مثلًا، فقد تبلورت الولايات المتحدة كفاعل عالمى ذى ثقل بعد دخول دولة الخلافة العثمانية مرحلة المرض المزمن واختفاء معنى التهديد الذى يمكن أن تثيره على الساحة الدولية، وهذا ما يعطى الحكومة الأمريكية حرية أكبر فى تبنى بدائل متنوعة تجاه العالم الإسلامى، كما يجعلها قادرة على أن تستفيد من كافة التطورات التى تشهدها مناطقه المترامية، فالإدارة الأمريكية تحرص فى كل المناسبات المتاحة أن تؤكد على أنه ليس ثمة عداء بينها وبين الإسلام أو المسلمين، بل إنها تذهب إلى التباهى بأن الجالية الإسلامية في الولايات المتحدة تتمتع بحرية ثقافية ودينية وسياسية لا تتمتع بها فى العديد من دول العالم الإسلامى نفسها .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الأرشيف الإلكتروني لوثائق البيت الأبيض والمتاح للاستخدام عبر شبكة المعلومات الدولية يضم ٤٠ وثيقة وردت فيها جميعًا كلمة " الإسلام "، معظمها صادرة عن الرئيس الأمريكى منذ بداية توليه الحكم؛ وبعضها لمساعديه مثل ساندى بيرجر وبعضها لزوجته هيلارى كلينتون فى مناسبات وأنشطة قامت تحت رعاية البيت الأبيض. وبشكل عام تكثر فى الوثائق المتاحة كلمات التهنئة التى يتوجه بها الرئيس الأمريكى إلى مسلمى الولايات المتحدة والعالم فى المناسبات الإسلامية التقليدية وأبرزها انتهاء شهر رمضان وحلول عيد الفطر، حيث يحرص كلينتون على الإشادة فى هذه المناسبات بالتعاليم والشعائر الإسلامية "التى تعلم الناس قيم التحمل والتعاطف والصبر"، كما يحرص على التوجه بالتهنئة للمسلمين الذين نجحوا فى اجتياز هذه التجربة الإيمانية الصعبة (تجربة الصوم). وفضلًا عن التهنئة والإشادة يهتم كلينتون عادة بأن يضمن خطبه الرسمية تأكيدات منه على قناعته التامة بانفصال القيم التى يدعو إليها الإسلام عن قيم الإرهاب التى تحاربها الولايات المتحدة وتقف لها بالمرصاد(٥٦). وبخلاف المناسبات الدينية كان كلينتون عادة ما يتطرق إلى ذكر الإسلام فى ثنايا زياراته الرسمية التى يقوم بها للبلدان الإسلامية حيث كانت تصريحاته فى تلك المواضع لا تكاد تخرج أيضًا عن الإطار السابق من المجاملة والإشادة.

أما أبرز الحالات التى اقتضت من البيت الأبيض الإدلاء بتصريحات تشتمل بشكل أساسى على ذكر للإسلام فهى تلك التى كانت تعقب قيام سلاح الجوى الأمريكى بتوجيه ضرباته إلى بلدان إسلامية مثل العراق والسودان وأفغانستان ففى تلك الحالات كانت الإدارة الأمريكية حريصة على أن تنفى أى علاقة بين هذه الضربات وبين استهداف الإسلام أو المسلمين بالإساءة.

فبعد قيامه بتوجيه الأوامر لسلاح الجو الأمريكى بتوجيه ضرباته إلى العراق فى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أواخر عام ١٩٩٨ بعد مشكلة لجنة بتلر ــ وكانت هذه الضربات قد تزامنت مع بداية شهر رمضان ــ سارع كلينتون بتوجيه خطاب إلى العالم العربى والإسلامى موضحًا فيه الأسباب التى دفعته إلى توجيه قواته لضرب العراق ومبديًا فى الوقت ذاته احترامه الكامل

للدين الإسلامى ولشهر المسلمين المقدس مبينًا أن عداء الولايات المتحدة الحقيقى لا يتجه إلى الإسلام ولا إلى المسلمين ولكن يتجه إلى القادة الذين يهددون بأعمالهم كل من المسلمين وغير المسلمين(٥٧). ولكن لم تنجح تصريحات كلينتون ولا عبارة "رمضان كريم" التى نطقها بالعربية فى نهاية خطابه فى التخفيف من حالة الاستياء التى سادت العالم العربى والإسلامى فى أعقاب هذه الضربات وبخاصة أنه قد صاحبتها عدد من الممارسات الاستفزازية مثل التصريحات التى صدرت عن وزارة الدفاع الأمريكية والتى أكدت بشكل فج على أن دخول شهر رمضان لن يحول بين قواتها وبين قصف الأهداف العراقية ، فضلًا عن قيام عدد من أفراد القوات الأمريكية بكتابة عبارات تستخف بالمسلمين وشهرهم المقدس على جدران الصواريخ الأمريكية التى كانت تتساقط على العراقيين طوال أيام شهر رمضان.

تكرر نفس هذا السيناريو بعد قيام سلاح الجو الأمريكى بتوجيه ضربات جديدة لكل من السودان وأفغانستان انتقامًا لتفجير السفارتين الأمريكيتين فى كل من نيروبى ودار السلام، حيث ظهر كلينتون مرة أخرى على شاشات التلفزة ليؤكد بهدوئه المعهود على أن هذه الضربات لا يجب أن يفهم منها أنها موجهة ضد الإسلام بأى حال ولا ضد المسلمين الطيبين الذين يحبون السلام ويعيشون بسلام فى العالم كله بما فى ذلك فى الولايات المتحدة نفسها، وأردف قائلًا " إنه لا يوجد دين فى العالم يبرر قتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال وعليه فإن ضربات الولايات المتحدة إنما تستهدف المتطرفين والقتلة ممن يغطون أهدافهم الدموية خلف عباءة من الحق"(٥٨). وكما فى المرة السابقة لم تغير هذه التصريحات من الوضع شيئًا ، فقد استقر فى وجدان مسلمى العالم أن الولايات المتحدة تمارس صلاحيات دورها كشرطى العالم بحيث لم يعد للاحتجاجات من معنى أو للشكوى من فائدة ، أما ما أعلنته السودان من سقوط عدد من القتلى من بين المدنيين (الأبرياء بدورهم) نتيجة لهذا القصف؛ فقد ذهب أدراج الرياح وكذا تأكيداتها على أن مصنع الشفاء الذى استهدفه القصف لم يتخصص لا من قريب ولا من بعيد فى إنتاج الأسلحة الكيماوية كما زعمت الإدارة الأمريكية بعد القصف.

كما كان تجديد فرض العقوبات الدورية على ليبيا، قبل قيامها بتسليم المشتبه فيهما فى حادثتي التفجير الشهيرتين، يشكل مناسبة للتأكيد على نفس المعانى السابقة والتى تدور حول استقلال السياسات العدائية التى تمارسها الولايات المتحدة ضد البلدان الإسلامية عن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مناهضتها للإسلام والمسلمين. ولكن هذه التأكيدات كانت تبدو بلا معنى بسبب أن العقوبات الأمريكية كانت تنصب بشكل أساسى على الشعوب الإسلامية ولا تؤتى ثمارها المرجوة على مستوى الحكومات التى تستهدف الإدارة الأمريكية معاقبتها.

وفى خطابه الذى ألقاه بمناسبة افتتاح الدورة الـ٥٣ لأعمال الجمعية العامة[٥٩] انتهز كلينتون الفرصة لكى يزيل الآثار السلبية التى أحدثتها الضربات والعقوبات الأمريكية سالفة الذكر حيث استفاض فى بيان موقف إدارته من الإسلام محاولًا أن يزيل أى لبس بخصوص هذا الموضوع حيث أعلن على الملأ رفضه لأطروحة صراع الحضارات والتى تروج ــ عن غير حق من وجهة نظره ــ لفكرة أن ثمة صراع حتمى بين كل من الحضارة والقيم الغربية والحضارة والقيم الإسلامية، وبرر كلينتون رفضه لهذه الأطروحة بأن قوى التطرف يمكنها أن تتستر فى عباءة أى دين لكى تبرر أهدافها الدموية. ثم استعرض كلينتون مبررات احترامه للإسلام والتى تدفعه لتبرئة ساحته من التهم التى تنسب إليه "فالإسلام هو الدين الذى يعتنقه ربع سكان الكرة الأرضية والذين يمتدون بطول العالم وعرضه بما فى ذلك الولايات المتحدة نفسها والتى يمثل الإسلام فيها أحد أسرع العقائد انتشارًا وحيث يوجد أكثر من ١٢٠٠ مسجد ومركز إسلامى وأكثر من ٦ ملايين مسلمًا ، فالأمريكيون والمسلمون ــ والكلام مازال لكلينتون ــ لا يستشعرون أى صراع حضارى فيما بينهم وإنما يتقاسمون الآمال والطموحات فى العيش فى سلام وأمان وفى رؤية غد أفضل لأبنائهم"[٦٠] . ويرى كلينتون أن الاختلافات القائمة بين الحضارتين لا ينبغى أن تقف حجر عثرة أمام الفهم المتبادل والاحترام العميق، فالولايات المتحدة نفسها تضم أفرادًا من مشارب شتى ولكنهم يعملون على العثور على ما يوحدهم أكثر مما يبحثون عما يفرق بينهم ولذا فإن الولايات المتحدة سوف تظل على احترامها وصداقتها للعالم الإسلامى وسوف تستمر فى البحث عن نقاط الاتفاق وعن القيم والمصالح المشتركة. واختتم كلينتون حديثه عن العلاقات الأمريكية الإسلامية باقتباس (غير منضبط) لأحد أحاديث النبىε [٦١] أعلن أنه يرى فيه مغزى ينبغى أن يستشعره العالم ألا وهو أهمية التحلى بروح الجماعة، وبخاصة فى مواجهة خطر الإرهاب، الذى لا يجب أن تنقسم الآراء بخصوصه "فالمسلمون واليهود، والكاثوليك والبروتستانت، والصرب والألبان، والمجتمعات المتقدمة وتلك الآخذة فى النمو (يجب أن تتحد جميعها فى مواجهة خطر الإرهاب ولا تنشأ فيما بينها اختلافات بخصوصه) فالخلاف الوحيد الممكن فى هذه الحالة إنما يكون بين من يمارسون أو يشجعون أو يتعاطفون مع الإرهاب وبين أولئك الذين يفهمون ببساطة أنه شكل من الإجرام والقتل"[٦٢]

وقد أصبحت تصريحات كلينتون السالفة والتى ألقاها أمام أعضاء الجمعية العامة للأمم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المتحدة بمثابة المرجع لكافة المتحدثين الأمريكيين الرسميين فيما تلى ذلك. إذ أصبح من المألوف أن يقتبسها مستشار الأمن القومى الأمريكى ساندى بيرجر أو وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبريت فى تصريحاتهم ذات الصلة لتأكيد نفس المضمون الذى عبر عنه الرئيس كلينتون من عدم وجود أى خلاف أو عداء مستحكم بين الولايات المتحدة وبين الإسلام والعالم الإسلامى.

ولكن المحك الأساسى الذى أتاح للولايات المتحدة أن تبرئ من خلاله ساحتها من تهمه معاداة الإسلام كان موقفها المميز فى أزمة إقليم كوسوفو ذى الأغلبية المسلمة، فقد مثلت الضربات الجوية الأمريكية، التى تزامنت مع تجاوزات الصرب ضد السكان الألبان المسلمين وصمت الحكومات الإسلامية، العامل الأساسى فى قبول الصرب لخطة السلام الدولية. وعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية كانت مدفوعة للتدخل بفعل العديد من العوامل التى ذكرها كلينتون بنفسه إلا أن المحصلة النهائية قد بدت لصالح المسلمين الذين يمثلون أغلبية سكان الإقليم. فقد ذكر كلينتون عدة أسباب لقيام الولايات المتحدة بتوجيه ضرباتها الجوية ضد الصرب؛ منها حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة، والتعلم من أخطاء الحروب السابقة وبخاصة الحربين العالميتين وحرب البوسنة، ومساعدة حلفائها الاستراتيجين فى المنطقة من المشاكل المحتملة وأبرزها مشكلة اللاجئين، والحفاظ على وحدة أوربا التى اعتبرها كلينتون أساسية لوحدة ومستقبل الولايات المتحدة نفسها نظرًا للعلاقات الاستراتيجية والمصيرية بين الكيانين. ولم ينس كلينتون أن يشفع هذه المبررات بواحد ذى صبغة أيديولوجية ألا وهو حماية القيم الأمريكية ودفع السلم والأمن الدوليين(٦٣). ولكن على الرغم من وجاهة هذه المبررات التى توحى بأن تدخل الولايات المتحدة كان حتميًا فإن الكثيرين قد تشككوا ــ قبل بدء الضربات الأمريكية ــ فى إقدام الولايات المتحدة على معاقبة الصرب، واعتبر البعض أن الولايات المتحدة ستنتهز الفرصة لتصفية الإسلام من أوربا عبر التغاضى عن سياسات التطهير العرقى التى يمارسها ميلوسوفيتش والتى بدأها فى البوسنة وأتبعها بكوسوفو، وهو الأمر الذى كذبته التطورات اللاحقة، فقد تصدت الولايات المتحدة؛ بإصرار يحسب لها؛ للتعنت الصربى وتحملت تكاليف الضربات الجوية فى هذه المرة بالكامل كما لم تتراجع بعد أن تم أسر ثلاثة من جنودها وإسقاط أحد مقاتلاتها الجوية من طراز الشبح. ولكن هذا الموقف الأمريكى لم تكن تحركه المأساة الألبانية بشكل كامل، والشاهد على ذلك أن الممارسات الدموية للصرب ضد السكان المسلمين قد تضاعفت فى أثناء فترة القصف الجوى الأمريكى والتى طالت أكثر مما ينبغى نتيجة لإحجام الولايات المتحدة وحليفاتها عن التدخل بقوات برية الأمر الذى أدى لتفاقم أزمة اللاجئين بشكل لم يعرفه التاريخ الحديث من قبل، كما يمكن إرجاع الإصرار الأمريكى فى قدر كبير منه إلى تدخل عنصر الهيبة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأمريكية فى المسألة بحيث أصبح استمرار الضربات الجوية مرهون باستسلام الرئيس الصربى وليس بحل أزمة اللاجئين، والخلاصة أن الولايات المتحدة لم تتدخل فى كوسوفو لنصرة المسلمين بشكل أساسى ولكن نتيجة تدخلها كانت فى مصلحتهم، وهو الأمر الذى أسهم فى إزالة أثار المواقف الأمريكية السلبية فى العراق والسودان إلى حد كبير.

ما يمكن الخروج به من تحليل الخطاب الأمريكى الرسمى هو أن الموقف الأمريكى الرسمى من الإسلام تحكمه نظرة أكثر تحررًا من الميراث التاريخى والتى تميز بشكل أوضح الخطاب الأوربى، ولذا تبدو الإدارة الأمريكية مستعدة للتعامل مع كافة الاحتمالات والاستفادة من كافة التطورات وذلك فى إطار براجماتى لا يتقيد كثيرًا بخصومات الماضى وذلك ببساطة لأن الولايات المتحدة لا تملك تاريخاً عدائيًا مع عالم المسلمين، ولا نقل لا تمتلك تاريخاً على الإطلاق.

وفى إحدى المناسبات التى تولى البيت الأبيض تنظيمها وحضرتها زوجة الرئيس الأمريكى؛ هيلارى كلينتون، أخذت تقص على الحضور طرفة حدثت لها فى أثناء زيارتها لأحد البلدان الإسلامية وذلك عند التقائها بعدد من زوجات الدبلوماسيين، وتتلخص الطرفة فى أن هيلارى ما إن بدأت تتعرف على إحداهن وتتجاذب أطراف الحديث معها حتى فوجئت بزوجة السفير تستهل حديثها بذكر الحروب الصليبية التى نشبت بين الإسلام والغرب منذ ما يزيد على ثمانية قرون؛ وانفجر الجمع الذى يستمع لهيلارى فى الضحك[٦٤]. وقد قصدت هيلارى من "طرفتها" هذه أن تبين للحضور أن الكثيرين ما زالوا يعيشون الماضى ويستلهمون مشاعرهم من تفاصيله معتبرة أن إثارة الحديث عن حروب العصور الوسطى فى أواخر القرن العشرين يمثل أحد مظاهر هذا الداء الذى يعانى منه البعض.

حادثة هيلارى وزوجة السفير تبين لنا أحد أبرز ملامح التصور الأمريكى ألا وهو التغاضى الكامل عن التاريخ أو بالأحرى التغاضى عما وراء التاريخ الأمريكى، فالتاريخ يبدأ فى أمريكا من وقت ظهورها كقوة مؤثرة على الساحة الدولية، وهو الأمر الذى يجعلها متحررة مما وراء هذا التاريخ من خصومات. ولكن إذا ابتعدنا قليلًا عن الموقف الأمريكى الرسمى، وتطرقنا إلى تيارات المجتمع الأمريكي، فلن نجدها جميعًا بمثل تلك البراجماتية، إذ يوجد فى قطاع واسع من المجتمع الأمريكى، رغم كل شئ، نوع من ثقافة العداء تجاه الإسلام والمسلمين. وتتميز هذه فى الولايات المتحدة بسمات خاصة، فهى على عكس الحال بالنسبة لأوربا لم تكن معنية إلى درجة كبيرة بقضية المهاجرين، ويرجع ذلك فى قدر كبير منه إلى الطابع المتنوع والمتعدد الثقافات السائد بالولايات المتحدة. يتركز الاهتمام الأمريكى بالأساس بالقضايا التى تمس الأمن؛ من قبيل: إعاقة إمدادات النفط، احتجاز الرهائن، تنفيذ عمليات إرهابية. ويمكن الرجوع بتاريخ العداء الأمريكى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

للإسلام إلى أوائل السبعينات، نتيجة لارتفاع أسعار النفط بترتيب من مجموعة الدول العربية المصدرة له، حيث أثار هذا التصرف موجة من ردود الأفعال الغاضبة داخل الولايات المتحدة، حيث تعرض ما كان يعد من قبل نظامًا اقتصاديًا مستقلًا ــ وللمرة الأولى ــ لشكل من أشكال الضغط الأجنبى، صور على أنه ابتزاز أو تهديد. ثم جاءت أزمة الرهائن لتؤكد فى أمريكا صورة الإسلامى المتعصب الإرهابى، وفاقم من هذا الذعر الغربى من الإسلام مجموعة من التحيزات المعادية للعرب والمرتبطة بالصراع العربى الإسرائيلى، وعلى الرغم من تواجد مثل هذه التحيزات منذ الأربعينات، إلا أنها قد أضحت أكثر وضوحًا منذ الستينات فصاعدًا لأسباب متعددة، منها نشوب حرب ١٩٧٦، ثم نشوء جناح راديكالى داخل حركة المقاومة الفلسطينية، وأخيرًا وليس آخرا بفعل قيام الصحف؛ الموالية لليهود؛ بتضخيم هذه القوالب[٦٥].

أما التعامل التحليلي فيمكن أن نأخذ الخطاب الملكى البريطانى؛ والذى يمثله الأمير تشارلز؛ كنموذج له[٦٦]، إذ يعد الأمير تشارلز أحد أبرز المتحمسين لفكرة الحوار بين الأديان كما يعد من قلائل النخب الغربية "الرسمية" التى تبدى إطلاعًا متعمقًا على المبادئ والتعاليم الإسلامية؛ فضلًا عن إلمامه بطرف صالح من تاريخ الخبرة الحضارية الإسلامية، وهذه ما يجعله فى قدر كبير من استشهاداته لا يعول كثيرًا على الواقع الهزيل للأمة بقدر ما يعول على العلامات المضيئة فى الواقع التاريخى والحضارى الممتد عبر معظم فترات التاريخ الإسلامى، ولكل ما سبق تبدو تصريحات الأمير تشارلز ذات الصلة بالشأن الإسلامى أكثر من مجرد تعميمات سياسية مجاملة أو دعائية.

كان العامل الأساسى الذى دفع تشارلز لكى يبحث فى الإسلام وحضارته نابعًا من قناعته بأن الحضارة الغربية المعاصرة تعانى من اختلالات جوهرية تحول بينها وبين الاستمرارية بل وتجعلها عرضة للانهيار فى المستقبل المنظور، أبرز هذه الاختلالات يتمثل فى الغياب الواضح لما أسماه تشارلز بـــ "الحقائق المقدسة" من الحياة المعاصرة والافتقار إلى العنصر الإيمانى والروحى والطغيان الكاسح الذى يمارسه العلم التجريبى على حساب المحتوى الأخلاقى والقيمى . وهذا ما دفع تشارلز لكى ينتقد تلك النظرة التى أصبح ينظر من خلالها إلى التقاليد والتى تتسم بالازدراء والاستهانة كما لو كانت الأخيرة بمثابة داء ينبغى التحرز منه. هذه الاختلالات وغيرها ــ وفقًا لتشارلز ــ تجعل الحضارة الغربية المعاصرة غير متوازنة فهى قائمة على ساق واحدة ترتكز على الإنجاز العلمى والمادى فيما تفتقر إلى الدعامة الثانية المتمثلة فى المعنوى والإيمانى والتقليدى والأخلاقى؛ وهذا هو ما يجعلها عرضة للتعثر بل والدمار إن استمرت الحال الراهنة على ما هى عليه[٦٧].

وقد رجع تشارلز إلى الإسلام بوصفه العنصر الأساسى الذى سمح ــ وقت أن كان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يمثل النموذج الحضارى السائد ــ بحدوث امتشاج كامل بين الدعامتين السابقتين؛ دعامتى العلم والأخلاق. فالحضارة الإسلامية مثلت الفترة الذهبية فى حياة الإنسانية حيث لم يضطر الإنسان فيها إلى الانقسام على نفسه ليفصل بين قيم الروح وقيم الجسد؛ بين قيم العلم وقيم الأخلاق؛ بل وبين العلوم الدنيوية والعلوم الأخروية.

ولذا فقد دعا تشارلز الغرب فى محاضرته الشهيرة التى ألقاها فى جامعة أكسفورد؛ وبشكل لا يحتمل اللبس؛ دعاه لكى يتعلم من الإسلام كيف تمكن من تحقيق هذه الثنائية وكيف نجح فى الجمع بين قيم العالم الأرضى وقيم العالم السماوى فى منظومة واحدة لا تضاد فيها. ويرى تشارلز أنه إذا كان معظم أبناء الشرق المسلم يسعون حاليًا إلى تعلم اللغة الإنجليزية من اجل تحقيق فهم أفضل للغرب وحضارته فإن على أبناء الغرب المسيحى أن يسعوا بدورهم لأن يتلقوا عن معلمين مسلمين دروسًا حول كيفية التعلم بالقلب والعقل معًا وهو الأمر الذى يجيده المسلمون ولا يجيده الغربيون ، والتعليم ثنائي البعد ــ بالعقل والقلب ــ والكلام ما زال لتشارلز ؛سوف يثبت جدواه فى كافة فروع المعرفة بما فى ذلك تلك المعارف التى كان ينظر إليها دومًا على أنه لا مجال للمعانى الأخلاقية أو الروحية فيها مثل علوم الهندسة والطب والبيئة[٦٨].

ويؤكد تشارلز على ضرورة أن يطرح الغربيون عن مخيلتهم تلك الصور الذهنية الجامدة التى يحملونها عن الإسلام؛ والتى يصبغها ميراث العداء الدائم فيما بين العالمين، وأن يتوقفوا كذلك عن تشويهه بإلصاق كل النقائص به وبشريعته التى يصورونها على أنها جملة من المبادئ المتطرفة أو على اعتبار أن التطرف فيها يمثل الأصل، ويدعو تشارلز بدلًا من ذلك إلى الالتفات إلى أثر الحضارة الإسلامية فى فترة العصور الوسطى على أوروبا حينما كان الإسلام يمثل الحضارة التى تحتذى ، وعليه يدعو تشارلز الغربيين إلى التعامل مع الإسلام على أنه يمثل تراثًا للحضارة الغربية وليس غريمًا لها كما يحثهم على ألا يجمعوا كل المسلمين فى كتلة واحدة فكما يوجد متطرفون مسلمون يوجد كذلك إسلاميون إحيائيون[٦٩].

ويحرص تشارلز على الجانب الآخر على تجنب القضايا الخلافية التى تحمل فى طياتها دواعى الخلاف بين المسلمين وغيرهم فى الغرب؛ ففى كلمته التى وجهها إلى الجالية الإسلامية فى بريطانيا والتى دعا فيها أفراد الجالية إلى ضرورة التمتع بالعقلية المتسامحة التى تساعدهم على تقبل النمط الحضارى الذى تأخذ به بريطانيا والذى قد يتضاد فى كثير من مظاهره مع ما يعتنقه ويؤمن به المسلمون؛ حرص تشارلز على ألا يتطرق لقضية سلمان رشدى من قريب أو من بعيد، على اعتبار أن التسامح فى هذه الحالة لن يكون مبررًا كافيًا للتغاضى عما اقترفه رشدى من وجهة نظر معظم أفراد الجالية الإسلامية المقيمة فى بريطانيا؛ وهذا الفهم لطبيعة الشخصية المسلمة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هو من الأمور التى تسجل لصالح تشارلز فى بلد مثل بريطانيا والتى يطالب كل من فيها المسلمين دون غيرهم أن يتراجعوا عن موقفهم من رشدى دون أى إدانة للأخير بفعل ما اقترفه بحق المسلمين وعقيدتهم.

وقد وجه تشارلز الدعوة؛ فى أكثر من مناسبة؛ للعالمين الغربى والإسلامى للعمل بشكل مشترك فى قضايا مختلفة، وذلك لتحقيق مساحة أكبر من التفاهم وتقليص أوجه الخلاف بينهما. ومن أمثلة ذلك قيامه بحث الغرب والدول الإسلامية على توحيد قواتهما لحماية المدنيين فى جنوب العراق من الهجمات التى ينفذها ضدهم رجال صدام حسين، وقد حاول تشارلز أن يضفى الصفة الإنسانية ــ لا السياسية ــ على دعوته تلك ؛خاصة فى ظل تورط الحكومة البريطانية بشكل مبالغ فيه فى الملف العراقى؛ مبيناً أنه فيما يركز العالم انتباهه على شمال العراق لحماية السكان الأكراد فإنه لا يتعامل بنفس القدر من الاهتمام مع الشيعة فى الجنوب والذين يقاسون الأمرين بفعل الانتهاكات التى تمارسها القوات المسلحة العراقية ضدهم(٧٠).

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الصحف البريطانية التى تتولى نشر ونقل تصريحات تشارلز الخاصة بالإسلام أو العالم الإسلامى؛ عادة ما تنجح فى إضفاء مناخ من القلق على صيغة ومحتوى هذه التصريحات ، فبعد تصريحه الذى دعا الغرب فيه لكى يتعلم من الإسلام ؛ ظهرت تعليقات تتهم تشارلز بأنه قد اعتنق الإسلام بشكل سرى على يد مفتى المسلمين القبارصة فى أثناء زيارته التى قام بها إلى تركيا، وقالت الصحيفة التى أوردت هذا الخبر " إن تصور الأمير تشارلز وهو يؤدى الصلوات الخمس متجهًا إلى الكعبة يبدوا أمرًا غير منطقى ، ولكن اعترافه ــ أى تشارلز ــ علناً على شاشات التلفاز بأنه يمارس الخيانة الزوجية قبل ذلك الحدث بعامين كان يبدو فى حينه غير منطقى كذلك"(٧١). وعقب تصريحه الذى دعا فيه إلى إنقاذ شيعة العراق من بطش النظام العراقى اتهمته الصحافة بأنه يلعب دور الواعظ فى أغلب تصريحاته(٧٢)؛ وتفضل هذه الصحف أن تمثل الإسلام فى خطابات تشارلز بشكل أممى ، فعندما يدعو تشارلز دول الخليج كالسعودية والكويت للعمل من أجل مساعدة الشيعة فى العراق، تفضل الصحف البريطانية استبدال دول الخليج بالعالم الإسلامى من أجل أن يحدث ذلك الأثر المطلوب فى نفوس القراء. وكذا عندما وصف تشارلز نفسه بأنه المدافع عن العقيدة (بدون تخصيص) ماجت معظم الصحف بالتحليلات التى تتهكم حيناً وتتهم حيناً آخر تشارلز بأنه قد تخلى عن دوره كمدافع عن العقيدة المسيحية لصالح النهوض بالدفاع عن العقيدة الإسلامية(٧٣).

وقد أثار الموضوع الأخير بالتحديد مشاكل ضخمة لتشارلز ؛ والذى كان قد صرح لأحد المعلقين بأنه يفضل أن يلقب بالمدافع عن الإيمان Defender of faith بدلًا من وصفه بالمدافع عن العقيدة (المسيحية تحديدًا)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

Defender of the faith وذلك لرغبته فى مد نطاق دوره الملكى لكى يشمل رعاية كافة الأديان التى تحتويها بريطانيا، إلا أن تصريحاته تلك قد قوبلت باستهجان واسع النطاق، حيث أبدى عدد كبير من الساسة وقادة الفكر فى بريطانيا استيائهم من دعوى تشارلز وامتد نطاق الاعتراض إلى رئيس الوزراء البريطانى نفسه (جون ميجور فى ذلك الوقت) الذى أعلن أن قيام ولى العهد بوصف نفسه بهذا الوصف لا يمثل أكثر من دعوى فارغة من المضمون؛ ففضلًا عن أن تشارلز شخص مسيحى يمارس شعائر الديانة المسيحية فإن دعوته سوف تبدو أيضًا بلا معنى فى نظر من استهدفهم تشارلز بها " فمن غير المقنع لأى شخص غير مسيحى أن يقتنع بأن تشارلز سيكون هو وليه"(٧٤). وقد وسع البعض من نطاق القضية وطرح تساؤل حول "هل آن الأوان لكى يتخلى العرش البريطانى عن دوره الكنسى ويتخلى الملك عن دوره فى قمة الإكليروس"، فيما ذهب البعض الآخر إلى أن تصريحات تشارلز ربما يكون قد قصد من ورائها نزع اعتراف قصر باكنجهام بشكل ضمنى عن الكنيسة الإنجيلية البريطانية. وقد استفاد من هذا القضية أصحاب نظرية "ارتداد تشارلز" حيث اعتبروها أحد عوامل الشك فى تحول تشارلز بشكل فعلى إلى الإسلام.

ويشير ماسبق إلى طبيعة المناخ الاجتماعى الذى يتلقى مثل هذه التصريحات إذ يوجد فى بريطانيا قطاع عريض ممن يستشعرون القلق بسبب تنامى الخطاب المؤيد للإسلام؛ وبخاصة فى ضوء ما يتم نشره من إحصائيات بخصوص أبعاد الوجود الإسلامى فى بريطانيا. فقد أفاد إحصاء أوردته إحدى الجمعيات البريطانية المتخصصة أنه بحلول عام ٢٠٠٢ سيبلغ عدد مرتادي المساجد من المسلمين ٧٦٠،٠٠٠ فى حين سيبلغ عدد نظرائهم من المسيحيين الإنجيليين ٧٥٦،٠٠٠ فقط . وتستند هذه الإحصائيات على الأعداد المتاحة عن عامى ١٩٩٢، ١٩٩٣ ففى هذين العامين زاد عدد المصلين المسلمين بمقدار ٣٢٠٠٠ فى حين تناقص عدد مرتادي الكنائس البريطانية بمقدار ١٤٠٠٠شخص. هذا وقد تم اختيار اثنين من المسلمين، لأول مرة، كأعضاء فى مجلس اللوردات، كما يوجد اثنان آخران فى مجلس العموم، وإن كان البعض ينظر لهذا التمثيل على أنه غير مؤثر خاصة وأن مجلس اللوردات يضم أكثر من ١١٦٠ عضوًا كما يضم مجلس العموم ٦٥٦ عضوًا إلا أن الترشيح لمجلس اللوردات على وجه الخصوص يحمل فى طياته نوع من المجاملة للجالية الإسلامية سواء من جانب العرش البريطانى أو من جانب حكومة بلير(٧٥).

ويحمّل البعض أفراد الجالية الإسلامية فى بريطانيا مسئولية الهامشية التى يعيشون فى ظلها، وذلك لأنها لم تنجح فى ترجمة حضورها الدينى والديموجرافى إلى نمط ملموس من أنماط التأثير الفكرى أو السياسى أو الاقتصادي فى المجتمع البريطانى. وإن كان بداية التواجد الإسلامى الشرعي على المسرح السياسى البريطانى يجعل من الممكن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أن نتوقع مزيدًا من الفاعلية الإجرائية لأفراد الجالية الإسلامية فى المستقبل المنظور.

ويمكن أن نسجل عند هذه المرحلة عدد من الملاحظات على الملامح التى تميز الخطابين البريطانى والأمريكى، فعلى الرغم من أن كلا الخطابين يحمل مضمونًا إيجابيًا بشأن المسألة الإسلامية إن جاز التعبير إلا ان ثمة نقاط تمايز تفرق بينهما على الرغم من ذلك. فمن ناحية السياق الذى يفرز فيه الخطاب نجد أن الخطاب الملكى البريطانى والذى يمثله الأمير تشارلز عادة ما يأتى فى سياق مناسبات فكرية أو أكاديمية مما يضفى على محتواه قدرًا أكبر من العمق التحليلى كما لا يشوبه البعد الدعائى المميز للخطاب الأمريكى الذى عادة ما يوجه إلى الجالية الإسلامية فى الولايات المتحدة. كما قد يأتى الخطاب البريطانى فى ثنايا زيارات يقوم بها ولى العهد البريطانى إلى دول إسلامية فى إطار من حرصه على تفعيل مشروعه للربط بين الإسلام والغرب وهو ما يختلف مرة أخرى عن الخطاب الأمريكى الخارجى الذى يتوجه به الرئيس كلينتون فى الأغلب إلى الشعوب الإسلامية بعد قيام القوات الأمريكية بتوجيه ضرباتها إلى دولة إسلامية أو أكثر.

كما يميز الموقف الأمريكى أيضًا أنه يفضل أن يقيم فصلًا بين نوعين من المسلمين وهما المسلمون من محبى السلام والإرهابيون، حيث يتوجه عداء الإدارة الأمريكية دومًا إلى الأخيرين والذين يستبيحون دماء الأبرياء وينشرون الإرهاب فى العالم؛ وإن كانت الإدارة الأمريكية لا تتطوع ببيان معيارها الذى تستخدمه للتفرقة بين النوعين، خاصة وأنها فى بعض عملياتها التى تنفذها ضد الإرهابيين عادة ما تستهدف بدورها عددًا من الأبرياء مما يعد إرهابًا دوليًا بمعنى من المعانى. أما الخطاب الملكى البريطانى فقد نجح فى أن يتجاوز هذه الثنائية عبر إسناد التعامل السياسى مع الإسلام إلى الحكومة البريطانية ورئاسة الوزراء؛ والتى تتطابق مواقفها بدرجة تامة مع مواقف الإدارة الأمريكية، فيما اختص التعامل الملكى بالجانب الثقافى والحضارى مع العالم الإسلامى؛ الأمر الذى يسهم ــ إلى حد كبير ــ فى دفع الانتقادات بعيدًا عن التاج البريطانى.

خاتمة

بطبيعة الحال؛ يصعب استخلاص رؤية عامة من ثنايا الخطاب الغربى المتشعب، عن الإسلام والمسلمين فى العالم المعاصر، وهذا ما يؤدى إلى صعوبة التعليق الموجز على ماسبق من نماذج، إلا أن هذا التشعب فى حد ذاته قد يصلح لكى يكون هو منطلقنا للحديث عما سبق من تيارات، فالخطاب الغربى يحوى فى داخله كل الثنائيات المنطقية التى يمكن استخلاصها، فهو قد أثبت للإسلام والمسلمين العديد من الصفات كما أثبت عكسها أيضًا بحيث لا يمكن فى النهاية أن نحاكمه بناء على أى منها على حده من دون أن نقع فى مشكلة التحليل الانتقائي، فهو قد أثبت للإسلام صفة التهديد ونفاها عنه فى ذات الوقت، وأقر أن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المسلمين يشكلون أمة ثم أنكر أن المسلمين يمثلون شيئًا متجانسًا، وأقام بنيانًا معرفيًا قائمًا على التعامل مع الشعوب الإسلامية وفقًا لمنهاجية ثقافية تؤمن بخصوصية المكون الإسلامى لدى هذه الشعوب، ثم عاد لكى ينكر أن يكون لاستخدام الإسلام كعنصر تفسيرى أى دلالة تحليلة، وأعلن أنه يقيم فصلًا بين الإسلام من حيث هو دين عالمى مرموق وبين ما يرتكب تحت ستاره من أعمال إرهابية، ثم توصل إلى أن الإرهاب يمثل صفة متأصلة فى الإسلام من حيث هو دين وفى المسلمين بالتبعية لا فرق فى ذلك بين الجماهير العريضة وبين الجماعات المسلحة ولا فرق أيضًا بين الأنظمة المعتدلة والأخرى الراديكالية.

هذا الرؤى المتنوعة فضلًا عما تؤدى إليه من ارتباك، فإنها تجعل البعض يتصور أن صياغة رؤية ذاتية مستقلة بعد ذلك هى أمر من الصعوبة بمكان، فالغرب لم يدع لنا شيئًا لكى نقدمه أو نقوله عن أنفسنا، ومن هنا تكمن خطورة الثنائيات التى يقدمها الخطاب الغرب عن العالم الإسلامى، فهى تدع المهتم بهذا الشأن بين خيارات كلها مر، فهو إما أن يؤمن بخطورة التهديد الذى يمكن أن تستثيره الأمة الإسلامية على الساحة الدولية إن هى تبلورت على شكل فاعل موحد، وإما أن يعتقد باستحالة فكرة الأمة ومن ثم بخرافة ما يثار عن التهديد الإسلامى، بمعنى آخر، إما أن يقرًا الأحداث قراءة أيديولوجية، وإما أن يتعامل معها بشكل واقعى لا مجال فيه لغير الاحتمالات الملموسة.

وما يقال عن فكرة التهديد المرتبط بمسألة التجمع الإسلامى يقال عن سائر القضايا الأخرى، التى يمثل الإسلام والمسلمون القاسم المشترك فيها.

أما الأفكار والمداخل التى تصلح كمعايير للنظر والتحليل والتى أقرها الإسلام نفسه فإنها لا تحتل أى بعد من أبعاد التعامل الغربى؛ فى معظمه؛ مع الإسلام، فمعنى الوسطية الدينية وتكامل الدينى مع الدنيوي ومحورية العقيدة فى حياة البشر وعدم الاستسلام للحتميات الاقتصادية والارتباط المعنوى الذى يلم المسلمين فى شتاتهم، وروح الجماعة التى تبرزها كافة الشعائر الدينية الإسلامية، وارتباط المعاداة والمسالمة بمدى سريان منهج الله فى الأرض والتعايش مع الآخر طالما لم يبدأ بعدوان؛ كل هذه الأفكار وغيرها تخلو منها معظم الرؤى الغربية التى تتصدى لدراسة العالم الإسلامى والتى تنطلق من قناعات وافتراضات مغايرة. فالخطاب الغربى يتعامل فى مجمله مع الإسلام على أنه ظاهرة غريبة أو شمولية تحاول أن تمد نطاق سيطرتها إلى كل جوانب حياة المرء ، فالإسلام وفق الفهم الغربى يحاصر الإنسان بشكل كامل؛ مرة من داخله: بتنظيم انفعالاته وتوجيه قيمه ومرة من خارجه: عبر صياغة شبكة من التفاعلات الشرعية التى لا ينبغى له أن يحيد عنها وفوق هذا وذاك يحدد له مقاصده العامة وأهدافه التى ينبغى أن يسعى لإدراكها فى حياته القصيرة. الإسلام بهذا المعنى هو شئ غير موجود فى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الغرب الذى يعتبر أن محركه الأساسى يتمثل فى اللاقيود والتحلل من كافة الآثار الموروثة.

التعامل الغربى مع العالم الإسلامى؛ وفقًا للرؤى السابقة؛ يثير إشكالية التطرق إلى دراسة قضايا الإسلام والمسلمون من خلال مداخل غير ملائمة، أو انطلاقًا من قناعات بحاجة إلى برهان. فالافتراضات المادية النزعة التى حكمت الفكر الغربى منذ الإرهاصات الأولى لعصر النهضة، قد صبغت الكثير من إنتاج المراحل المبكرة من تعامل الغرب مع الإسلام، كما كان ارتباط المشروع الاستشراقى بالمشروع الاستعمارى؛ على التفصيل السابق؛ أحد أوجه القصور التى عانى وما زال يعانى منها الفكر الغربى المتعلق بالإسلام، نظرًا لما أضفاه ذلك الارتباط على الاستشراق من طابع فج على الرغم من كل ما يقال عن انتفاء العلاقة بين مصدر الأفكار وصحتها. فالأبحاث الاستشراقية لم تكن تتم فى كثير من الأحيان لخدمة الأغراض العلمية المتجردة، وإنما لخدمة مصالح وأهداف اقتصادية وسياسية ضيقة، فعندما كانت معظم الدول الغربية متورطة فى حملة استعمارية لم تنج منها معظم دول الشرق، أدى المستشرقون واجبهم على أكمل وجه فى مساعدة هذه الحملة غير النزيهة.

وما يقال عن الاستشراق القديم يمكن أن يقال عن الاستشراق الجديد، فمازال ولاء معظم دارسي ومحللي العالم الإسلامى يتوجه بالأساس إلى دولهم الأصلية، حيث يهدف هؤلاء المحللون إلى تقديم قاعدة معلوماتية متكاملة عن المجتمعات والشعوب الإسلامية لخدمة أجهزة صنع السياسة فى هذه الدول، بما يساعد على التعامل مع دول الشرق بما يتلاءم مع ظروف المرحلة الجديدة التى تكاد فى بعض جوانبها وآثارها تتفوق على ما أحدثته مرحلة الاستعمار بشكله التقليدى.

هذا الولاء؛ وإن كان غير مستهجن فى ذاته؛ إلا أنه يتسبب فى إحداث الكثير من سوء الفهم بخصوص العالم الإسلامى، كما يؤدى إلى خلق صور ذهنية جامدة عن المجتمعات والشعوب الإسلامية بل وعن الإسلام نفسه فى بعض الأحيان. فخدمة أغراض صنع السياسة تتداخل فيها الأغراض والميول التى تراوح بين التشدد واللين والليبرالية والراديكالية، كما لا تخلو من التحريضية والممالأة. ولهذا رأينا من يزايد على فكرة الخطر الإسلامى ويدعو لشحذ الهمم استعدادا لحرب باردة جديدة انطلاقًا من قراءة أيديولوجية للتاريخ ، كما رأينا من يدعو لوضع السيوف فى أغمادها وعدم التسرع فى خلق عدو لا وجود له انطلاقًا من رؤية واقعية أغراها ذلك الانفصال الحاصل بين النظرية والتطبيق فى عالم المسلمين الأمر الذى أقنعهم بخرافة الحديث عن أمة إسلامية أو إسلام واحد من الأساس. ورأينا قبل ذلك مظاهر متعددة من سوء الفهم عكسها المنهج الاستشراقى التقليدى الذى مارس عمليات متعددة من الإسقاط الذاتى على ما يقوم بدراسته فى عالم المسلمين. أما الاتجاهات الداعية إلى الحوار فإن ثمة نقاط ضعف بالغة تعانى منها هى الأخرى، أبرزها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ذلك المتعلق بتخلى كل طرف عن حججه العقدية جملة واحدة، والانصراف إلى الحديث عن نقاط التشابه بين تعاليم الأديان الثلاثة، فالتشابه القيمى والأخلاقى بين تعاليم الأديان السماوية لن يكون ــ بمفرده ــ مدخلًا كافيًا لإيجاد "عقيدة" مشتركة بين أتباع الأديان الثلاثة. ويعلم كل من له دراية بأسس الحوار الدينى فى الإسلام أن القضية الأولى التى فرضها الله سبحانه على المسلمين كمدخل أولى للوصول مع أهل الكتاب إلى كلمة سواء هى الإيمان بالله إلها واحدًا لا شريك له، وهو مدخل ذو صبغة عقدية لا مراء فيها، فالحوار يبدأ من الأصل وينتهى إلى التفاصيل وليس العكس. وعلى أية حال فإن ذلك التماهى العقائدى ــ الذى يدعو إليه أنصار الحوار ــ ليس شرطًا فى الإسلام للتعايش المشترك والتسامح مع الآخر، وإلغاء الخصومات، فإن ذلك كله يمكن أن يتحقق من خلال وجود نوع من الإدراك لحقيقة الالتزامات الدينية، التى تقنن ضمن ما تقنن أسلوب التعامل مع الآخر وقبوله والتعايش معه. أما الخطاب الرسمى وشبه الرسمى فى الغرب فإنه لا يتجاوز حدودًا معينه فى تعامله؛إعلاميًا، مع الإسلام والمسلمين، إذ تغلب عليه النبرة المجاملة أو التصالحية، أما على مستوى السلوك الفعلى فإنه كثيرًا ما تتضاد المواقف مع التصريحات فى الوقت الذى تملك فيه المجتمعات الغربية؛ التى تمثلها هذه النخب، مواقف أكثر تعقيدًا من مواقف ساستهم.

إشكالية التعامل الغربى مع الإسلام والمسلمين بكل ما تستثيره من تحيزات أو إخفاقات أو صناعة للقوالب الذهنية تثير مفارقة واضحة؛ خاصةً لدى من يحاولون استلهام الإدراك الحقيقى لمعنى الأمة الإسلامية أو حتى لمعنى الإسلام من خلال الغرب، ففى الوقت الذى نجح الغرب فيه فى استلهام أسس نهضته الحضارية من خلال استكشاف أصوله الإغريقية واللاتينية عبر الحافظة العربية والإسلامية التى نقلت صورًا صادقة للتراث الإغريقى إلى الغرب فى بواكير مرحلة نهضته من دون إسقاط أو تغيير مخل، نجد أن كثيرين ــ من أبناء الأمة الإسلامية ــ ممن يحاولون استجلاء أسس النهضة العربية والإسلامية من خلال الحافظة الغربية ومن بطون كتب المستشرقين، ينتهون إلى ما يزهدهم تمامًا فى تراثهم الحضارى أو ما يعمق قطيعتهم مع جذورهم الثقافية والدينية.، فتبنى الخطاب الغربى عن الإسلام عادة ما ينتهى بالمرء إلى حالة من التشكك فى بعض الأحيان أو المعاداة فى أحيان أخرى، أما مجرد ترديد هذا الخطاب والترويج لمفاهيمه فإنه يفضى إلى حاله من التشتت التى تفتقد إلى أى مدلول؛ وبخاصة بعد أن انتهى الخطاب الغربى إلى هذه الحالة من التعقد والتعدد والتشابك، والتى تتضاد نتائجها إلى درجة التعارض الكامل.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الهوامش:

[١] Bernard Lewis, Foreign Affaires, 1992

[٢] Ibid., P 104

[٣] انظر عرض لأهم أفكار هذا الكتاب فى : فريد هاليداى، الإسلام وخرافة المواجهة، ترجمة: محمد مستجير،، مكتبة مدبولى، ١٩٩٦،٢٤٣

[٤] انظر على سبيل المثال: يوليوس فالهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوى، دار الجيل، ١٩٩٨.

[٥] فاروق عمر فوزى، الاستشراق والتاريخ الإسلامى،الأهلية للنشر، ١٩٩٨.

[٦] المرجع السابق، ص ١٠٥

[٧] لمراجعة وجهة نظر إسلامية تتبنى نفس الرؤية انظر: عبد الله محمد الغزالى، السود فى التراث العباسى، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الرسالة ١٣٨، ١٩٩٩

[٨] عن هذا المحور انظر: مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، مجلة النور الكويتية، ١٩٩٣، الفصل الأول.

[٩] فريد هاليداى، مرجع سابق، ص ٢١١

[١٠] المرجع السابق، ص ٢١٢

[١١] زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ترجمة: غريب محمد غريب، دار الشروق، ١٩٩٥.

[١٢] جاك فاردنبرج، إسهام الإنسانيات والعلوم الاجتماعية فى الدراسات الإسلامية، الاجتهاد، العدد ٢٤، ١٩٩٤، ص ١٢٦.

[١٣] مراد هوفمان، مرجع سابق، ص ٢١٢.

[١٤] إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة–السلطة–الإنشاء،ترجمة: كمال أبو ديب.مؤسسة الأبحاث العربية،١٩٩٥،ط٤.

[١٥] جاك فاردنبرج، مرجع سابق، ص ١٣٠.

[١٦] فريد هاليداى، مرجع سابق، ص٢٥٤.

[١٧] مراد هوفمان، مرجع سابق، ص ٢١٢.

[١٨] جاك فاردنبرج، مرجع سابق، ص ١٢٩.

[١٩] فاروق عمر، مرجع سابق، ص ٣٠.

[٢٠] فريد هاليداى، مرجع سابق، ص ١١.

[٢١] Bernard Lewis, The roots of Islamic Rage, Atlantic, Vol. 226,1990

[٢٢] Daniel Pipes,Muslims are coming, National Review, 1990.

[٢٣] Judith Miller, The challenge of Radical Islam, Foreign Affaires, 1993

[٢٤] The Sword of Islam هو عنوان مادة فيلمية أعدتها هيئة الإذاعة البريطانية فى منتصف الثمانينات

[٢٥] شاع استخدام هذا التعبير إعلاميًا عقب إجراء باكستان تفجيرها النووى الأول ردًا على التفجير الهندى فى أواخر عام ١٩٩٨.

[٢٦] Reuven Paz, Is There an "Islamic Threat"?, www.metacrawler.com, 1998.

[٢٧] Debra Cohen, Hs Islamic extremism global threat to Jews?, Ibid,1995.

[٢٨] Gudrun Kramer, Techniques and Values: Contemporary Muslim Debates on Islam and Democracy, in Gema Martin (ed), Islam, Modernism And The West, Tauris publishers, London, 1999.

[٢٩] Judith Miller, Op.cit,p43

[٣٠] Leon Hadar, What Green Peril, Foreign Affaires,1993,p 29

[٣١] Derba Cohen,Op.cit

[٣٢] Ibid.

[٣٣] Samuel P. Huntington, The Clash of civilizations, Foreign Affairs, 1993

[٣٤] لمراجعة عدد من الانتقادات لأطروحة هانتجتون انظر: Franz Schurmann,Regan,Huntington,Netanyaho: Why the Ultra Conservatives Wants to Scare the World,www.pacificnews.org.وانظر أيضا
Jone Esposito, " Clash of civilizations?" Images of Islam in the West, in Steve Smith (ed), The Globalization of World Politics,Oxford Press, 1997

[٣٥] Judith Miller, Op.cit.

[٣٦] فريد هاليداى، مرجع سابق، ص ١٩٦.

[٣٧] Reuven Paz, Op.cit.

[٣٨] Leon Hadar,Op.cit.

[٣٩] مراد هوفمان، مرجع سابق،ص ٢٣.

[٤٠] حول مناقشة هذه الرؤية انظر: Simon Murden, Cultural Conflict In International Relations: The West and Islam,in John Baylisand Steve Smith (ed),Opcit.
George Joffe, There is no Islamist international,www.metacrawler.com.[٤١]

[٤٢] فريد هاليداى، مرجع سابق،ص ٢٣٢ ومابعدها.

[٤٣] المرجع السابق.

[٤٤] جون اسبوسيتو، التهديد الإسلامى أسطورة أم حقيقة، ١٩٩٥،ص ٣٣١.

[٤٥] الرجع السابق، ص ٣٣٢.

[٤٦] المرجع السابق، ص ٢٩٣.

[٤٧] المرجع السابق ، ص٣٣٣. وانظر أيضًا John L. Esposito, Political Islam, Beyond the Green Menace, Current History, 1994.

[٤٨] المرجع السابق، ص ص ٣٤٤، ٣٤٥

[٤٩] RobinWright, Islam, Democracy, and the West, Foreign affairs, 1992.

[٥٠] جون اسبوسيتو، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[٥١] Ralph Braibanti, Islam and the West: Common Cause or Clash?, The Center for Muslim-Christian Understanding,1999,p 1.

[٥٢] مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر،الهيئة العامة للكتاب،١٩٩٨،ص ٢٣٧.

[٥٣] المرجع السابق، ص٢٣٠ وما بعدها.

[٥٤] المرجع السابق، ص ٢٢٢.

[٥٥] المرجع السابق، ص ٢٢٧، والكاتب الذى اقتبس منه وات هو Henri Nussle, Dialogue avec l'Islam,Neuchatel,1949,147 .

[٥٦] Www.whitehouse.com, 19 Jan,1999.

[٥٧] Ibid,19 Decamber,1998.

[٥٨] Ibid,20 August,1998.

[٥٩] Ibid., 21 September, 1998.

[٦٠] Ibid.

[٦١] جاء فى كلام كلينتون أنه معجب بقول النبى (صلى الله عليه وسلم):صلاة الرجل فى جماعة تضاعف فى الأجر صلاته بمفرده.

[٦٢] Ibid.

[٦٣] Ibid,24 March, 1999.

[٦٤] Ibid,12 April, 1999.

[٦٥] فريد هاليداى، مرجع سابق، ص ٢١٦.

[٦٦] لم نتعامل مع خطاب الحكومة البريطانية، بوصفها الممثل الأساسى للخطاب البريطانى، على اعتبار أنها عادة ما تتطابق تصريحاتها بشكل كامل مع مواقف الإدارة الأمريكية فيما يتعلق بالقضايا الخارجية، بما فيها موضوع الموقف من العالم الإسلامى.

[٦٧] The Electronic Times, 14 December,1996.

[٦٨] Ibid.

[٦٩] Ibid.

[٧٠] The Electronic Times, 28 October, 1993.

[٧١] The Electronic Londoner's Diary, 15 October, 1997

[٧٢] BBC,(Internet Service), 26 May, 1996.

[٧٣] The Times,28 October, 1993.

[٧٤] BBC.Op.cit.

[٧٥] Ralph Braibanti,Op.cit.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com